INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE



سيلفستر دو ساسي

SILVESTRE DE SACY

بسمة عروس

100 كتاب وكتاب
28

سيلفستر دو ساسي

الكتاب : **سيلفستر دو ساسي**
شيخ المستشرقين الفرنسيين
المؤلفة : **بسمة عروس**
الطبعة : الأولى 2021
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2021MO2568
الترقيم الدولي : 978-9920-627-98-6

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

سيلفستر دو ساسي

شيخ المستشرقين الفرنسيين

بسمة عروس

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبـة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزًا مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة على

مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئة الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة	مدير عام المعهد
عبد العزيز السبيل	معجب الزهراني

المقدمة

سيلفستر دو ساسي (1758- 1838)

ينتمي أنطوان إسحاق "سيلفستر دو ساسي" Antoine Isaac Silvestre De Sacy إلى جيل متقدم من المستشرقين الفرنسيين الذين كان لهم فضل التأسيس لمدرسة الاستشراق الفرنسية ووضع الملامح العامة لها. ولعل أهم ما يَسِمُ تجربة هذا المستشرق، هو السياق التاريخي والحضاري الذي اكتنفها؛ سواء فيما تعلق بالبلاد الفرنسية وما عاشته من تحولات سياسية وفكرية تجلت في سياستها الخارجية تجاه الشرق والبلاد العربية على نحو عام، أو ما تعلق بنظامها التعليمي وحظ الدراسات الشرقية والعربية من المنظومة التعليمية الفرنسية.

وتعدّ الحقبة الزمنية التي تشكّلت فيها ملامح الاتجاه الاستشراقي لـ"سيلفستر دو ساسي" مهمة من حيث دورها في التأثير في البحث العلمي، ولاسيما الانكباب على دراسة الثقافات القديمة وفحص آثارها، ومنها على وجه الخصوص ثقافات الشرق العربي؛ ممّا يشهد على عراقة الاهتمام بالحضارة العربية الإسلامية من حيث هي مصدر ملهم ورافد من ضمن

روافد كثيرة للتنوير الأوروبي[1]، ففي القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كان هذا المستشرق من أبرز الأعلام الذين استفادوا من أعمال سابقيهم وبسطوا المهاد اللازم والضروري لأجيال المستشرقين في القرن التاسع عشر فشكّل حلقة الوصل وعلامة التمام[2].

يمتدّ الاهتمام بالدراسات العربية والإسلامية في فرنسا إلى مراحل تاريخية متقدمة تعود إلى قرون سابقة الثورة الفرنسية مما يؤكد رسوخ بعض التقاليد الاستشراقية، ولكن ما يستحق التنويه حقًّا هو ازدهار هذه الدراسات في مرحلة تاريخية من أكثر المراحل تقلُّبًا وتوترًا في التاريخ الفرنسي، فقد عاصر "دو ساسي" بوصفه أحد أعلام هذه الحقبة الزمنية، الثورة الفرنسية، ثم نشأة الإمبراطورية الفرنسية الأولى مع نابليون الأول من 1804 إلى 1814، وشهد عودة الملكية مع "لويس الثامن عشر" و"شارل العاشر" حتى 1830، ثم حكم ما يسمى بـ "ملكية يوليو" مع "فيليب الثالث" التي استمرت من 1830 حتى 1848.

لم تتغير السياسة الفرنسية تجاه الشرق كثيراً، وإن كان الاهتمام باللغات الشرقية وتوسيع دائرة الدارسين لها، يتفاوت بحسب المراحل السياسية، وكذلك الشأن بالنسبة إلى قرارات الحرب

(1) Belvilancqua Alexander, The republic of Arabic letters, Harvard university press 2018 .

(2) السابق، ص 202 .

والسلم، لكن الثابت، هو الحفاظ على المؤسسات الراعية للمشروع الاستكشافي الفرنسي للمجال العربي الإسلامي وتمتين هياكلها، ولاسيما بعد أن ظهر فيها متخصصون على درجة من النبوغ والمهارة مثل البارون "دو ساسي".

لفتت إنجازات "دو ساسي" أنظار العالم إلى مدرسة الاستشراق الفرنسي وجعلتها قبلة الدراسين؛ بل يمكن القول: إنه كان سببًا هيأ في مطلع القرن التاسع عشر لنوع من الاستشراق الجديد الذي نأى بالدرس الاستشراقي عن الإغراق في الدراسات اللاهوتية والإنجيلية ممهدًا لتأسيس معرفة بالشرق مختلفة وأكثر دقة[1] .

ويمنحنا الاطلاع على حياة هذا المستشرق تصوّرًا واضحًا عن فرنسا في مرحلة مهمة من تاريخها، هي المرحلة التي سبقت استعمارها لعدد من المناطق، منها ما كان في البلاد العربية، وهو ما يمكن أن يفتح أفقًا للبحث حول علاقة الدراسات الاستشراقية بالمخططات الاستعمارية، وما مهدته من معرفة بالشرق وبلاد الإسلام مثّلت عدة صالحة في المغامرة الاستعمارية وعاملاً مساعدًا في فهم ثقافة المستعمَر وكيفية التعامل معه [2].

---

(1) Pouillon François (ed), Dictionnaire des orientalistes de langue française; Paris; IISMM karthala; 2008; article SILVESTRE DE SACY Antoine Isaac; Sylvette Larzul (version electronique http:// dictinnaire des orientalistes. ehess.fr (Decembre 2020).

(2) المقداد محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990، ص 186.

سيلفستر دو ساسي: السيرة والمنجز

1 - حياته:

ولد "أنطوان إسحاق سيلفستر دو ساسي" يوم 21 سبتمبر سنة 1758[(1)] في عائلة تنتمي إلى البورجوازية الباريسية. فقد والده وهو ما يزال طفلاً فربته والدته وكفلته، وكانت امرأة محبة للعلم أثرت في توجيهه نحو الآداب القديمة. نشأ في وسط مسيحي متديّن ومُوالٍ للسلطة السياسية، مختلف من الناحية

(1) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (premier article). In: Journal des savants.
Novembre-décembre 1936. pp. 264-280; doi :
https://doi.org/10.3406/jds.1936.6196
https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1936_num_6_1_6196
Fichier pdf généré le 05/05/2018
ذهب صاحب هذا المقال إلى أن سيلفستر دو ساسي ولد في 22 سبتمبر من سنة 1758، ولكن جل المصادر التي اطلعنا عليها تؤكد تاريخ الحادي والعشرين من سبتمبر ومن بينها:
Salomon Georges, in "Bibliothèque des arabisants français, T 1 Silvestre De Sacy (1758-1838), publication de l'institut français de l'archéologie orientale; publié sous la direction de Emile Chassinat, le Caire 1905; p 9.

الاجتماعية اختلافًا بيّنًا عما كان يُعرف عن بورجوازية القرن الثامن عشر من انغماس في حياة الصخب واللهو والحفلات، فقد كانت حياته على جانب كبير من الزهد والبساطة.[1]

كان جدّه كاتب عدل، وكذلك كان والده، وكذلك جدّه لأمه، وهو الابن الأوسط لأبويه اللذين رُزقا بأربعة أبناء ذكور توفي أصغرهم في سن مبكرة. نشأ يتيمًا لكن وصاية أمه، التي كانت على درجة من اليسار ولم تدخر وسعًا في تربية أبنائها وتأمين التعليم الجيد لهم، عوضت عن الكثير مما كان يمثله حضور الأب. عانى في طفولته الكثير مما يصيب الأطفال من أمراض، فخافت الأم على طفلها العليل واستقدمت له أفضل المدرسين في البيت فعملوا على تأسيسه تأسيسا صحيحًا في اللغات الكلاسيكية خاصة والمواد الأساسية بحسب مناهج المدارس الفرنسية، ممّا أثر في تشكيل موهبته المبكرة لتعلم اللغات فضلاً عن استعداده للتعلم الذاتي.

كان للمحيط الأسري دور كبير في نحت التوجه العام لـ"سيلفستر دو ساسي"، فقد كان انكبابه على تعلم اللغات الشرقية ومعرفته الجيدة بالمصادر القديمة صدى للروح التي

(1) Petit-Dutaillis Charles. La vie de Silvestre de Sacy. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 82e année, N. 1, 1938. pp. 64-73; doi : https://doi.org/10.3406/crai.1938.76982 https://www.persee.fr/doc/crai_0065-0536_1938_num_82_1_76982 (juin 2020)

زرعتها فيه والدته، فضلاً عن تأثير بعض الشخصيات التي كان لها دور فعال في مسيرته العلمية.

عُرف بميله لتعلم اللغات، ولاسيما اللغتين العبرية والعربية، منذ أن كان يافعًا، ولم يكن متاحًا لفضوله إلا التقاط جزئيات وإلماحات من صديق كان يرافقه في جولاته في حدائق دير "سان جيرمان دو بري" وهذا تقريبًا أقصى ما كانت تسمح به والدته الحازمة والمتدينة. وفي الفترة نفسها التقى الراهب "البينيدكتي" دوم برترو "Dom Bertherau"[1] وهو العالم باللغات الشرقية في دير "سان مور"، فكان لهذا اللقاء أثره في تعزيز استعداده للتعلم. قدم له "برترو" مجموعة من الوثائق المخطوطة المتعلقة بالحروب الصليبية التي أوصى الحكومة الفرنسية بأن تقتنيها، وأصر عليه حتى يتعلم العربية ويساعده في فهم محتواها. وافق "سيلفستر دو ساسي" بعد إلحاح، واستطاع في زمن وجيز أن يتقن قواعد اللغة ويفك شفرة الكثير من تلك الوثائق وكثير من المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة الدير. وقد كان في هذه التجربة أكبر الغنم للمستشرق الناشئ، فقد وجد في اطلاعه على تلك المواد

---

(1) اسمه جورج فرانسوا برترو Georges Francois Bertherau توفي في 1794 كان يشتغل بجمع الوثائق ونصوص المؤرخين العرب التي تتعلق بالحروب الصليبية . انظر:
Antoine-Isaac Silvestre de Sacy, « Notice des Manuscrits laissés par Dom Berthereau, religieux bénédictin de la c. de S. Maur, mort en 1794 », dans *Magasin Encyclopédique*, 1801, p. 7-26 ; tiré à part en 1810 .

المخطوطة والوثائق فرصة لوضع اللبنات الأولى لما سيؤلفه فيما بعد عن المؤرخين المسلمين للحروب الصليبية وعن تاريخ مصر في العهدين الفاطمي والأيوبي، فوضع التصوّر المبدئي والخطة ثم أكمل تأليف الكتاب في أيام الثورة.

تعدى تأثير "برترو" إقناع "دو ساسي" بتعلُّم العربية، فوجهه إلى تعلم العبرية فأتقنها عن طريق تواصله مع مترجم كان يشتغل في بلاط الملك[1]. لقد فتحت له معرفته باللغة العربية آفاقًا واسعة في معرفة الشرق، وهذه المعرفة لم تكن مقصورة على النصوص الدينية؛ بل على الإنتاج العام للكُتاب المشرقيين. وبعد معرفة العربية انفتح على تعلم اللغتين الفارسية والتركية ليكون بذلك قد سيطر على مجموعة اللغات التي تمكنه من فهم قسم مهم من الثقافة والآداب الشرقية.

بدأ دراسته العربية بمتابعة دروس في الكوليج دو فرانس يلقيها المستشرق "دنيس دومنيك كاردون" Denis Dominique Cardonne [2]، ولكنه كان يعوّل كثيرًا على التعلُّم الذاتي وهذا ما أكده المستشرق

(1) هو إتيان لو غراند، انظر:
Dehérain Henri. Un maitre de Silvestre de Sacy l'orientaliste Étienne le Grand. In: Journal des savants, Janvier-février 1935. pp. 17-31; doi: https://doi.org/10.3406/jds.1935.6143
https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1935_num_1_1_6143

(2) "دونيس دومينيك كاردون، عمل مترجمًا خاصًا بالملك الفرنسي وسكرتيرًا لشؤون الشرق، كان رئيس كرسي اللغتين التركية والفارسية من 1750 حتى وفاته في 1783.

الفرنسي الشهير "ويليام مارسيه" William Marçais[1].

وتميل بعض المصادر التي درست تاريخ حياته إلى التقليل من دور التوجيه الأسري غير منكرة تأثير والدته وبعض صداقاته، ولكنها ترى أن ما تهيأ له لم يكن وحده مفسرًا لظهور واحد من أبرز المستشرقين في فرنسا وأوروبا كلها[2]. وهو الرأي الذي يقول: إنه "لا يوجد أي شيء في تاريخه العائلي ولا في دراسته يمكن أن يكون سببًا في توجهه الى الدراسات الشرقية. إن تمكنه

(1) "ويليام مارسي" (1882-1962) مستشرق فرنسي عمل مديرًا لمدرسة تلمسان وأستاذًا فيها، وهي إحدى المدارس العربية الثلاث التي أنشأتها فرنسا لتخريج مساعدين لها في أعمالها في إدارة البلاد. اتصل بعلماء الجزائر وتونس والمغرب، ودرس لهجات المنطقة. من أهمِّ آثاره نشر كتاب (التقريب والتيسير) للنووي متنًا وشرحًا وترجمة. كما ترجم (جامع الأحاديث الصحيحة) للبخاري في أربعة أجزاء، وله كتاب عن اللهجات العربية، وبحث بعنوان (أصول النثر العربي الفني). نقلا عن المطلب الثاني: فرنسا: - موسوعة الأديان - الدرر السنية (dorar.net) (2020/12).

(2) هو رأي عبّر عنه المستشرق الفرنسي وليام مارسي، انظر ص 80 المقال التالي:

Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 82e année, N. 1, 1938. pp. 79-86; doi :
https://doi.org/10.3406/crai.1938.76984
https://www.persee.fr/doc/crai_0065-0536_1938_num_82_1_76984
Fichier pdf généré le 04/10/2018

الموسوعي في مجال دراسة الاستشراق لا يمكن إلا أن يكون بأمر من القدر نفسه"[1]. لقد كانت دراسته في البداية لا تختلف في شيء عن المحتوى الأساسي الذي يحصل عليه التلاميذ من أبناء جيله، "وهو تكوين قائم على معرفة جيدة بالمواد الإنسانية تضاف إليها معرفة بالقوانين والشرائع، وربما كان في ذلك ما شكل له مهاداً مناسباً لدراسة الفيلولوجيا الشرقية أو غيرها"[2].

اتجه الى دراسة اللغة العربية، وكان ذلك ضمن ما عُرف به من شغف مبكر لتعلم اللغات وخاصة منها اللغات القديمة[3]. اهتم أولاً بإتقان مبادئ النحو العربي وانكب على قراءة النصوص الكثيرة، ومن ثم صار يحفظ الكثير منها عن ظهر قلب، واتجه بعد ذلك الى التحرير مستعملاً اللغة الفصيحة مثلما تدرب في بداياته على التحرير باللغتين اللاتينية والإغريقية ونجح في ذلك بشكل لافت للانتباه. [4]

وقد ظهر في تحريره العربي أسلوبه الرائق والمتين الذي يعكس حذقه للغة ولخصائصها الدقيقة والتعابير الخاصة بها ما يدل على أنه استطاع أن يتشبع بالعربية ويهضمها ويستشعر دقائقها

---

(1) السابق، ص 80 .

(2) نفسه وكذلك الصفحة.

(3) تعلم السريانية والكلدانية وغيرها بمجهود ذاتي.

(4) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant ; p 81 .

وروحها، وقد يكون ذلك عائداً إلى اجتهاده ومثابرته وموهبة خاصة طوّرها بالتدرّب وإدمان النظر في النصوص، وهو ما نستشفه من قول "ويليام مارسيه": ولا يخفى أن منهج "دو ساسي" في تعلم العربية منهج تقليدي عوّل فيه على ملكة خاصة في الحفظ وموهبة خاصة في تعلّم اللغات فضلاً عن التدرّب على النصوص المعالم يتخذها شواهد لتطبيق ما فهمه من الدرس النحوي، وهو ما أكسبه قدرة على التحرير في زمن وجيز.[1]

على الصعيد الشخصي حظي "سيلفستر دو ساسي" بحياة لا تقل نجاحًا عن حياته العلمية والمهنية، فقد عاشت والدته معه سنوات طويلة؛ تلك السيدة التي ترملت مبكراً وعملت على تربيته وتعليمه، وتزوج من المرأة التي اختارها في شبابه وعاش معها قرابة نصف قرن، وكوّن أسرة كبيرة من بينها نجله "أوستازاد سيلفستر دو ساسي" الذي سيكون عالمًا لا يقل شهرة عن والده[2].

كان كاثوليكيًا محافظًا، وكذلك كان اتجاهه السياسي فقد كانت له تحفظات إزاء روح التجديد التي بدأت تعصف بمؤسسة

---

(1) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant. In: Comptes rendus des séances de l'Académie ; p 80 .

(2) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article). In: Journal des savants, Janvier-février 1937. pp. 17-32; doi :
https://doi.org/10.3406/jds.1937.6204
https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1937_num_1_1_6204, p 32

الحكم في فرنسا. عُرف بمناصرته للملكية[1] ضد الثورة، ولم يكن يرى في التمرّد على الملك أيَّ خير لفرنسا، كما لم يكن يكنّ "للإمبراطور نابليون أي حب على الرغم من سعي هذا الأخير إلى التودّد إليه وكسب صداقته ولاسيما بعد منحه لقب "البارون"؛ بل إنه كان من بين المنشقين عنه في 1815"[2]، وكان نابليون يكرر عليه السؤال كلما لقيه في حدائق التويليري: "كيف حال العربية؟" comment va l`Arabe?[3].

عُرف عنه عطفُهُ على الفقراء في منطقته، وكان يخصص الصباحات للمرور عليهم ومساعدتهم. فقد أمضى كل حياته في العاصمة الفرنسية بين أحيائها القديمة ولم يغب عنها إلا مدة قصيرة قضاها في جينوفا حيث اقتضته رحلة لفحص بعض المخطوطات للسفر، ولعله من الغريب أن الرجل الذي عرّف الغربيين بالشرق وثقافته وحضارته لم يعرفه إلا من خلال المخطوطات والأخبار التي رواها زملاؤه وتلاميذه. قضى أيامه كلها ما بين مساحة جغرافية

---

(1) Petit-Dutaillis Charles. La vie de Silvestre de Sacy. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 82e année, N. 1, 1938. pp. 64-73; doi: https://doi.org/10.3406/crai.1938.76982 https://www.persee.fr/doc/crai_0065-0536_1938_num_82_1_76982 (juin 2020), p 70

(2) المقداد محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ص 197.

(3) Salomon Georges, in "Bibliothèque des arabisants français, T 1 Silvestre De Sacy, p 20 .

تمتد على أوساع حدائق سان جيرمان دي بري والكوليج دو فرانس والمكتبة الملكية حتى حدود اللوكسمبورغ [1]. كان رجلا خيرًّا، جادًّا في عمله، متمسكًا بالمبادئ التي آمن بها منذ نعومة أظفاره، ومنها مبادئ الكاثوليكية الجانسينية (Janseniste)[2]. ومن شواهد وفائه واعترافه بجميل من وجهوه في بداية حياته موقفه مع معلمه الروحي "برترو" لما تدهورت أوضاعه بعد التغييرات السياسية، وصار في أسوا حال بسبب المرض وقلة ذات اليد، وهو الذي أوقف عمره على العمل والدراسة، حيث قام "سيلفستر دو ساسي" باستخراج شهادة وتوقيعها وبموجب هذه الوثيقة حصل "برترو" على مستحقاته المالية التي كانت وقتها ألفي فرنك فرنسي.[3]

---

(1) Petit-Dutaillis Charles. La vie de Silvestre de Sacy 73p.

(2) وصف ابنه سامويل استازاد والده وتديّن العائلة بقوله: "كان من خصائص الأسر الجانسينية آنذاك إذا كان لي أن أحكم بحسب أسرتنا على الأقل أن يجمع أفرادها بين حرية عقلية واسعة وإدامة للقراءة في حياة مسيحية جادة وبين أشدّ أعمال التقوى صرامة وجدة لم يكن الواحد منهم يذهب بالإيمان عن طريق الجهل بل كان يفضّل مهما تكن المخاطر أن يغدو إلى الإيمان عن طريق الدراسة والعلم " (..) وكان سيلفستر كثير الإحسان ويختم يومه بسماع القدّاس كل مساء.
نقلا عن "بدوي عبد الرحمان، "موسوعة المستشرقين"، دار العلم للملايين، ط (3) 1993، ص 337 .

(3) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (premier article). In: Journal des savants, Novembre-décembre 1936. (pp. 264-280); doi :

=

يعدّ دو ساسي مثالاً ناصعًا لحياة منظمة مليئة بالعمل والإنجاز والجدية، اشتغل حتى الرمق الأخير؛ فقبل وفاته بأسابيع قليلة أصدر بحثًا عن "ديانة الدروز"[1] ويوم وفاته قدم درسه في الكوليج دو فرانس في اللغة الفارسية، ومر بالمكتبة الوطنية لينظر في بعض المخطوطات، وأنجز بعض المهام الإدارية التي تتطلبها منه خطته الوظيفية بوصفه سكرتيرًا في الأكاديمية الملكية.[2] توفي في 19 فيفري (فبراير) 1838 بشكل مفاجئ دون أن تسبق وفاته مرحلة من الآلام، وكان سنه آنذاك ثمانين سنة.[3]

2 - مسيرته المهنية وإشعاعه العلمي:

أصبح "سيلفستر دو ساسي"، وهو في سن الحادية والعشرين متخصصًا في النصوص العبرانية ولغات الشرق الأوسط، وفي السابعة والعشرين عضوًا حرًا في الأكاديمية الخاصة بالآداب والحضارات الشرقية ثم عضوا قارًا فيها في سن الرابعة والثلاثين[4].

= https://doi.org/10.3406/jds.1936.6196
https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1936_num_6_1_6196
Fichier pdf généré le 05/05/2018; p 267.

(1) السابق، والصفحة نفسها.

(2) Petit-Dutaillis Charles. La vie de Silvestre de Sacy, p 72

(3) Salomon Georges, in "Bibliothèque des arabisants français, T 1 Silvestre De Sacy, p 29.

(4) Petit-Dutaillis Charles. La vie de Silvestre de Sacy p 67 .

أشرف داخل هذه الأكاديمية على مشروع مصنف جامع يتعلق بالمؤرخين الفرنسيين وضِمنَهُ مشروعٌ جزئيٌّ أُقر في 25 سبتمبر 1807 عن مؤرخي الحروب الصليبية. لكن ضعف الوسائل المادية آنذاك قعد به عن إكماله، ثم عاد إلى بعثه من جديد أيام الثورة. تقلد منصب السكرتير المستمر للأكاديمية أكثر من خمس مرات متتالية، وفي هذه الفترة عمل على إنجاز الكثير من المشاريع المتعلقة بتاريخ الشرق العربي وحضارته.[1] وفي 31 أكتوبر سنة 1794 طُلب منه أن يشارك في أعمال لجنة علمية مكلفة بما يتعلق بإيداع الأعمال الأدبية. عُرف بعد ذلك بأنه معلم للعربية في مدرسة اللغات الشرقية، ثم أصبح في 1803 عضواً في قسم تاريخ اللغات القديمة، وفي 1806 قَبل أن يكون رئيس كرسي الدراسات الفارسية في نفس الأكاديمية التي لطالما افتخر بالانتساب إليها. ومن سنة 1815 إلى سنة 1822 عمل "سيلفستر دو ساسي" عضواً في اللجنة العامة للتعليم وكانت مهمته إدارية بالدرجة الأولى.

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن هذه الأكاديمية التي تأسست في 1750، وسميت بالأكاديمية الملكية للنقوش والآداب، كانت

(1) Dussaud René. L'activité académique de Silvestre de Sacy. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 82e année, N. 1, 1938. pp. 100-107; doi : https://doi.org/10.3406/crai.1938.76991 https://www.persee.fr/doc/crai_0065-0536_1938_num_82_1_76991; pp 101, 102 .

تشتمل على أربعين عضواً منهم اثنا عشر عضواً حراً غير مقيم. التحق "سيلفستر دو ساسي" بصفة عضو حر غير قار بهذه الأكاديمية وعمره آنذاك 27 عامًا، وكان ذلك يعد مأثرة وحظوة عظيمة لا تتوفر إلا للمتميزين. وكانت الصبغة العامة لعمل الأكاديمية تتمثّل في نوع من الموسوعية في المعارف وخاصة بعد القرار الذي حول مسارها في 1786، وتقتضي المشاركةُ في أشغالها الإلمام بتاريخ اللغات القديمة وعلم النقوش وعلم المسكوكات، وعلم التاريخ والجغرافيا وغيرها. ثم تشكلت داخلها لجنة نموذجية كانت مهمتها التعريف برصيد المخطوطات في المكتبة الملكية والمكتبات الخاصة؛ فكان "سيلفستر دو ساسي" شغوفًا بهذا العمل كثيراً ينجزه بتفان شديد، ولكن النظام الإداري يعوقه أحيانًا وخاصة كونه عضواً غير قار في بداية انتسابه إليها.

وجد في عمله في رحاب الأكاديمية مناخًا ملائمًا لتطلعاته وملكاته التي ثقفها بمداومة الاطلاع والقراءة والتكوين المتين منذ تعليمه المبكر في اللغات القديمة وأنحائها. رأس أكاديمية الآداب والنقوش خمس مرات، وطوال فترة رئاسته كان يقدم بشكل متصل ودوري ثبتًا في جدول عن المخطوطات الموجودة في مكتبة الأكاديمية.[1]

---

(1) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (premier article). In: Journal des savants, Novembre-décembre 1936. pp. 264-280; doi : =

وفي أكتوبر 1795 تأسس المعهد الوطني للعلوم والفنون، وعيّن "سيلفستر دو ساسي" فيه بصفة عضو قار في الطبقة الثالثة المهتمة بتاريخ العصور القديمة وآدابها[1]، وهو ما يدل على أنه لم يكن يدخر جهداً في سبيل الانتماء إلى المؤسسات واللجان التي يُفعّل فيها قدراته ومعارفه؛ بل كان يقبل على كل ذلك بكل جدٍّ رغم كثرة الأعباء المنوطة به في تدريس اللغة العربية وغيرها.

في 30 مارس1795 صدر قرار بتأسيس معهد عام للغات الشرقية داخل المكتبة الوطنية وأسند تدريس العربية لسيلفستر دو ساسي. وبدأ التدريس فعليًا في 22 يونيو 1796، وكان جدوله يمتدّ على أربعة أيام لمدة ساعتين يوميًا؛ ويقوم التكوين على تدريس قواعد اللغة وينتقل في مرحلة لاحقة إلى تفسير بعض النصوص القرآنية وبعض القصص من "كليلة ودمنة"[2]. وكاد المعهد يفقد مدرس العربية؛ ذلك أنه كان يشترط وقتها على كل مدرس أن يؤدي القسم فيحلف بأنه مناهض للملكية، ومع رفض "سيلفستر" لكون هذا الأمر مخالفًا لمبادئه، وُضع المعهد في مأزق. وكان

= https://doi.org/10.3406/jds.1936.6196
https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1936_num_6_1_6196
Fichier pdf généré le 05/05/2018

(1) السابق، ص 103 .

(2) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (premier article). p268 .

يفترض أن يتوقف التدريس وقتيًا بسبب استقالته؛ لكن "دو ساسي" قَبِلَ أن يدرّس إلى حين وصول البديل عنه، وبحث المعهد عن خلف له فلم يجد[1]، ولكن بعد مدة عاد التعليم العربي واهتدى المعهد إلى قرار صائب، هو إبقاؤه في وظيفته. حتى سنة 1803 لم يكن في المدارس الحكومية إلا مدرس واحد للغة العربية، هو "سيلفستر دو ساسي".

وفي 1824، بعد وفاة "لويس لانجلاس"[2] Louis Langlès أصبح "دو ساسي" مدير معهد اللغات الشرقية فعمل على تعميق الجانب العلمي لهذه المؤسسة التعليمية وأضفى عليها اتجاهًا بحثيًا في مقابل الاتجاه الذي كان غالبًا، وهو مجرد تكوين مترجمين يوضعون على ذمة القناصل.

أصبح في 1806 مدرسًا في الكوليج دو فرانس، وفي سنة 1807 بعث تدريس اللغة العربية في مرسيليا وساند تعيين معلم

---

(1) Salomon Georges, in "Bibliothèque des arabisants français, T 1 Silvestre De Sacy, p16 .

(2) "لويس ماثيو لانجلاس" مستشرق فرنسي عني خاصة بدراسة الرحلات في البلاد الإسلامية، توفي في 1824، كان وراء تعيين "دوساسي" معلما للغة العربية في معهد اللغات الشرقية وكان هو مدرسا للغة الفارسية، عمل على إخراج الكثير من الرحلات من بلاد فارس إلى الهند، ترجم إلى الفرنسية " كتاب النظم الحربية والسياسية " من تأليف "تيمورلنك". نقلا عن:
بدوي عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص 605 .

مصري من الأقباط لاجئ في فرنسا، هو "غابريال طويل"، وكتب رسالة مؤرخة في الرابع من مارس سنة 1807 يدعم فيها خصال هذا الرجل ويوصي بتوظيفه في تدريس العربية الفصحى في مرسيليا؛ مشيرًا إلى إتقانه كذلك اللهجة العامية العربية واللغة الفرنسية. [1]

وبعد انهيار الإمبراطورية وعودة حكومة البوربون Bourbon قَبِلَ "دو ساسي" لقب "بارون " وخُلع عليه الكثير من الألقاب وحظي بأسمى التكريمات، كما قبل مناصب إدارية كثيرة، ولكن هذا لم يمنعه من مواصلة عمله بكل شغف، وهو الاشتغال على المخطوطات الشرقية. تفرغ بين سنتي 1792 و1796 للعمل على نشر المحاضرات التي كان ألقاها في الأكاديمية من 1787 إلى 1791، وذلك تحت إشراف المطبعة الرسمية الوطنية، كما أنهى في سنة 1793 طبع "مذكرات حول التاريخ القديم لبلاد فارس ومسكوكات الملوك الساسانيين متبوعًا بتاريخ هذه السلالة". وكان وقتها قد استقال من عمله واعتزل الحياة الباريسية فاشترى أرضًا ومنزلين في منطقة "أوجن Ognes" في الشمال وأقام فيها أربع سنوات باذلاً وقته كله للبحث والتأليف.

---

(1) Dehérain Henri. Silvestre de Sacy et l'enseignement de l'arabe à Marseille. In: Journal des savants, Septembre-octobre 1937. pp. 215-221; doi :
https://doi.org/10.3406/jds.1937.2952
https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1937_num_5_1_2952

أما على صعيد العمل السياسي والحضور في المجتمع المدني؛ فقد كان لـ"سيلفستر دو ساسي" نشاط ملحوظ رغم استغراقه الكبير في تخصصه الرئيس، ومن ذلك أنه في بداية القرن التاسع عشر، وحين كان عمره اثنين وأربعين عامًا لما خلع عليه لقب البارون "دو ساسي" أو بالأحرى بارون الإمبراطورية، أصبح عضواً في مجلس اللوردات الفرنسيين في المملكة الفرنسية (التي استمرت من 1814 إلى 1848).[1] وفي 1808 انتخب ممثلاً ونائبًا في المجلس التشريعي عن منطقة "السين"[2] Seine.

استفادت وزارة الخارجية الفرنسية من معارف "دو ساسي" حول الشرق، وخاصة فيما يتعلق باللغة الفارسية، وذلك في إتمام بعض الصفقات التجارية وإيفاد المبعوثين السريين وغير ذلك. وفي مقابل خدماته حددوا له راتبًا مقداره ألفا فرنك فرنسي، كما كان ملحقًا بوزارة الخارجية بصفة خبير في شؤون الشرق العربي والإيراني، ثم حُجبت عنه هذه المسؤولية وحجبت امتيازاتها. وفي سنة 1830 كان على وزارة الحرب الفرنسية أن تحرر بلاغًا يتلى على الشعب الجزائري، فطُلب من "دو ساسي" أن يراجعه[3]،

(1) Petit-Dutaillis Charles. La vie de Silvestre de Sacy; p 69.

(2) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(3) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (premier article), p272.

كما استُعين بخبرته في مواقف أخرى وخاصة في التأكد من أصالة بعض الوثائق الواردة من دول الشرق كالهند وإيران وغيرها.

اهتم "دو ساسي" بدراسة الحضارة العربية الإسلامية التي نشأت في وادي النيل، وذلك ضمن اشتغاله بتاريخ الشعوب الإسلامية. وربما شجعت بعض الظروف السياسية اهتمامه الخاص بهذا البلد، فقد كانت جُل المعلومات التي ذكرها في رسالته عن قوانين الملكية للأراضي والنزاعات حول حقوقها في مصر مما استفاد منه مرافقو الجنرال "بونابارت" في حملته.[1]

3- إنجازاته العلمية في الدراسات الشرقية والعربية:

بدأ "دو ساسي" متخصصًا في العبرية؛ فقد تعلم هذه اللغة وأتقنها، ولم يكن به فضول لدراسة العربية في البداية، شأنه في ذلك شأن الكثير من العلماء الموسوعيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر الذين كانوا يعدون معرفة العربية مكملة لمعرفة العبرية، وكانوا يرون أن التمكن من العبرية مفتاح لفهم النص المقدس[2]، فانخرط في البدء في دراسة القانون وبعض اللغات الأوروبية، مثل الإنجليزية والألمانية، إلى أن قادته المصادفة وحدها إلى تعلم العربية والتخصص فيها، وهو ما يمكن أن

(1) Marçais William, Silvestre De Sacy arabisant, p 85.

(2) Marçais William, Silvestre De Sacy arabisant, p 81.

نستشفه من الخطاب الذي ألقاه في تقديم كتابه "النحو العربي"، ثم تدخّل القدر ليقع تعيينه مدرسًا للغة العربية في معهد اللغات الشرقية. وكان قرار التعيين يقتضي أن من يتصدى لتدريس أي لغة يتعيّن عليه أن يؤلف بالفرنسية كتابًا في نحو هذه اللغة، وهو ما نشط له "دو ساسي" دون أي تراخ [1].

ولما كان "دو ساسي" يختلف إلى الكوليج دو فرانس وهو شاب ليدرس اللغة العربية لم يكن لمعلمه "كاردون" وقتها من تلاميذ. وفي الفترة نفسها كانت المؤلفات عن اللغة العربية وآدابها قليلة جدًا تُعَدُّ على الأصابع. وبعد خمسين سنة أصبح حول كرسي الآداب العربية والدراسات الفارسية في الكوليج دو فرانس فيلق عظيم من الدارسين يتزاحمون في طلب هذا التخصص الأثير. وقد يكون السبب عائدًا إلى ما أشاعه "دو ساسي" من روح الاهتمام والحماسة وقد يكون عائدًا إلى طبيعة اللغة العربية نفسها؛ فقد رأى المستشرق الفرنسي "ويليام مارسي" أنه: "لم يتوفر للغة من الثراء مثلما توفر للغة العربية، ولم تعرف أم حبًا من أبنائها مثلما عرفت اللغة العربية، فالرصيد الهائل جدًا من المؤلفات البلاغية وكتب المختارات ودواوين الشعراء والقواميس وكتب النحو والأمثال والمأثورات التي راكمتها عبر قرون أجيالٌ

(1) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant ; pp. 79-86.

من الكُتّاب، يشهد على جهد أبنائها وحرصهم وتفانيهم. لقد ألفوا في كل شيء: ألفوا الشروح والحواشي والتعليقات، وما يجب أن يقال وما لا يجب أن يقال.. عالم متشعب يمكن أن يحار فيه العالم المستشرق الأوروبي إن سلك داخله دون مُوَجِّهٍ أو دليل".[1] لكن شجاعة دو ساسي وتصميمه ساعداه في رحلة استكشافه للغة التي لم يُخْفِ انبهاره بها فسار داخل هذه الغابة المتشعبة المظلمة وفتح فيها طرقا ومسالك أدخلت إليها الضوء والهواء، فأثمرت جهوده في البداية كتابًا، هو "كتاب النحو العربـي لتلاميذ معهد اللغات الشرقية"، وهو "كتاب تعليمي يقدم قواعد التركيب والاشتقاق والتصريف للمبتدئين، وهو مُؤَلَّفٌ بارع في دقته ووضوحه وفي علميته".[2]

وقد انكب على تأليف هذا الكتاب، مستلهمًا تجربته في تدريس العربية فوضع مسودات كثيرة وظف فيها المادة العلمية التي يستعملها في دروسه ولم ينشره إلا في 1810، ثم أتبعه بكتاب في العروض والميزان الشعري عند العرب. كان كتابه في بحور الشعر العربي بمثابة كشف جديد ووطء لأرضٍ بكرٍ؛ فلم يكن المستشرقون من قبله قد اهتموا بالعروض وأوزان الشعر، فكان في محاولته ما فتح لهم آفاقًا في هذا المجال. وقد وضع

---

(1) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant; p 82.

(2) المرجع نفسه وكذلك الصفحة .

لهذا الكتاب عنوانًا على طريقة علماء العربية في العنونة، وهو "التحفة السنية في علم العربية". وفي الإطار نفسه ألف كتابًا في قواعد تجويد القرآن وقواعد رسمه والجوانب الصوتية فيه. وكان يرى أن تعليم النحو العربي يجب أن يراعي الناحية التعليمية القائمة على التبسيط وتجنُّب الخوض في مسائل نظرية. وحري بنا أن نشير إلى أنه نشر منذ سنة 1799 كتابه "مبادئ في النحو العام"، وهو كتاب يعود الى مرحلة شبابه وقد أعيدت طباعته مرات.(1)

ومن ضمن المؤلفات التعليمية كذلك، يمكن أن نذكر كتابا بعنوان: "المختارات النحوية" نُشر في 1829 اهتم بتبسيط دراسة النحاة الأوائل خاصة بالنسبة إلى المتعلمين والمستشرقين الجدد.(2) وقدم "دو ساسي" في 1833 كتابَ ألفية ابن مالك متبوعًا بشرح وتعليقات، وقد أصدره بالتعاون مع المجمع الآسيوي البريطاني.

قدم "دو ساسي" للدراسات العربية خدمات كثيرة في حيز زمني ضيق نسبيًا فعلى مدار ما يقرب من نصف قرن استطاع أن يكمل ويصحح ويُقَيِّم ما كُتب عن تاريخ العرب وحضارتهم وأدبهم، في كل من المجلة الآسيوية ومجلة العلماء "المستودع الموسوعي" (le magazin encyclopedique) .

---

(1) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article), p20

(2) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant. P 83.

أما فيما يتعلق بالمخطوطات؛ فقد استكشف مجموعات من المخطوطات العربية[1] وكشف عنها للعالم حيث كان يصرح بكل ما تحقق له في هذا المجال ويطلع باقي المختصين في المجال عليه، وعلى ما يتوفر في الأرشيفات المختلفة من وثائق تتعلق بالعالم العربي وتاريخه.[2] إن تحقيق النصوص غير المعروفة وإخراجها مرفوقة بملاحظات وتوضيحات وشرح أو تفسير، هو من أهم الأعمال التي قام بها "سلفستر دو ساسي" وأجلّها، ولاسيما في حقل الآداب الشرقية. وقد كان يوثق ذلك كله في مجلة "إشارات ومقتطفات من المخطوطات"؛ فكان له الفضل الكبير في إماطة اللثام عن الكثير من المخطوطات العربية والسريانية والفارسية.

في سنة 1806 أصدر كتابه "مختارات من النصوص العربية (منتخبات)"، وفيه اختيارات من نصوص نثرية وشعرية لأبرز الكتاب والشعراء إلى جانب نماذج من الرسائل ومقتطفات من

---

(1) العياشي، عبد الله، مدرسة الاستشراق الفرنسية وجهودها في دراسة وحفظ المخطوط العربي.

(2) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant; p 84.

النصوص السياسية التي تعكس جانبًا من التاريخ السياسي الحديث للشرق. وقد كان هذا الكتاب موجهًا، في البداية، لتلاميذ معهد اللغات الشرقية لكنه تجاوز إطارهم ليلقى رواجًا كبيرًا وترحيبًا وتقديرًا من المستشرقين المعاصرين له من الفرنسيين وغيرهم. وفي سنة 1826 صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب، وبعدها بثلاث سنوات أتبعه بكتاب منتخبات من النحو العربي أو نصوص مختارة لأبرز النحاة العرب.

كما حظي الأدب العربي القديم باهتمام "سلفستر دو ساسي" فالتفت إلى أبرز النصوص النثرية، ومنها كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع الذي أصدره في سنة 1816 مرفوقًا بتعليقات وشروح مفيدة، وأتبع ذلك بملاحظات حول نشأة النص ورحلته عبر الثقافات والآداب. وتعد مقامات الحريري واحدة من أهم النصوص المعالم التي اهتم بها "دو ساسي" فأخرجها في سنة 1822 في نسخة ضافية مع شرح كامل وتعليقات موضحة لأسرار اللغة، "كما اهتم بنص طريف، هو رسالة كتبها الطبيب عبد اللطيف[1]،

---

(1) هو الطبيب عبد اللطيف بن يوسف المعروف بابن اللباد، ولد في 557 هـ في بغداد وعاش فيها وانتقل إلى الموصل والقاهرة. يعدّ طبيبًا ومؤرخًا ونحويًّا وعالمًا بالآثار المصرية، انظر ترجمته في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة، وتحديدًا في الصفحة 683 من طبعة دار الحياة، بيروت، (د ت)، والرسالة المذكورة هي "الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار ".

وهو طبيب بغدادي ولد في بغداد في 1161 وعاش في مصر أيام حكم صلاح الدين، وألف كتابًا عرض فيه الكثير مما لاحظه وعاينه عن الناس وأحوالهم في معيشتهم، وتحدث عن فيضان النيل وعن المجاعة الرهيبة التي اجتاحت البلد وجعلت الناس يأكلون لحوم بعضهم، ووصف أصناف النبات والحيوان والفنون والآثار"[1]، وكل ما يتعلق بالبيئة والحياة المصرية في القرن السادس للهجرة، فكان الطابع التسجيلي لهذا النص وقيمته التوثيقية، هو أبرز ما تنبه إليه "دو ساسي" لما فيه من معطيات ومعلومات قد لا تتضمنها المؤلفات التاريخية. وهكذا كانت الترجمة الفرنسية التي قدمها لهذا النص الصادرة عن "جوزيف وايت دو أكسفورد" للنشر مرجعًا قيمًا جدًا للدراسين يضيء تاريخ مصر في العصور الوسطى[2]. وتجلت هذه النزعة في دراسة الأدب العربي في الورقة التي قدّمها في الجلسة العامة للمجمع الآسيوي في 27 أبريل 1826 عن الشعر العربي، وبيّن فيها بعض خصائصه وقيمته لدى المؤرخين؛ وذلك لما يمكن أن يستخرجوه منه من جوانب تتعلق بحياة المجتمعات العربية، كما نوه بصعوبة ترجمته إلى الفرنسية. عبّر دو ساسي- بكثير من الدقة والضبط- عن رأيه في الشعراء المداحين، وفسّر بوضوح كيف يرى الجمالية فيه كما ترجم ما رآه الأكثر شهرة وجمالاً فيه.

(1) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant.; p 85.
(2) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article)

ومن الدلائل على أنه موسوعة عصره في معرفة خصائص الأدب العربي والخبير بأسرار اللغة أن الشاعر الألماني الشهير "جوته"[(1)] استعان به ليفهم كيفية التركيب الإيقاعي للشعر العربي والشرقي، ولما أصدر ديوانه المعروف "الديوان الشرقي للمؤلف الغربي" صدّره بإهداء له اعترف فيه بفضله في توجيهه إلى معرفة طبيعة الإيقاع الشرقي.[(2)]

عُرف "سيلفستر دو ساسي" نحويًا ولغويًا ومحققًا للنصوص، ولكنه لم يقتصر على هذه المجالات؛ فكانت له إسهامات في التأريخ لمراحل من تاريخ الشرق العربي وغير العربي. بدأ ذلك بكتابه عن تاريخ الساسانيين الذي نشره على حسابه سنة 1793، وقد أسهم هذا الكتاب في ذيوع صيته في أوروبا كلها. وكانت مصر وبلاد الشام وبلاد فارس والشرق الأوسط المراكز الأساسية لدراسته؛ فهو قد ساح في تاريخ الغرب الإسلامي فدرس تاريخ

(1) استعانة الشاعر "جوته" بالمستشرق الفرنسي كانت غير مباشرة، ولكنها موثقة فقد كان يراسل دوساسي الذي وجهه إلى أحد تلاميذه وهو جوهان جوتريد كزغارتن، كما اعترف في مذكراته أنه استطاع فهم أبنية العربية وقواعدها من خلال كتاب النحو العربي الذي ألّفه دوساسي، انظر:
كاترينا مومزن، جوته والعالم العربي، ترجمة عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، ع 194، الكويت، 1990-1993، صص 38-39.

(2) Petit-Dutaillis Charles; La vie de Silvestre de Sacy; p 72.

إسبانيا المسلمة وممالك البربر في إفريقية والممالك الشرقية في الهند والصين.

ومن إسهاماته في البحوث التاريخية، ما كتبه عن تاريخ العرب قبل الرسول محمد عليه السلام، وتاريخ "سلالة الغزناويين"، وتاريخ المؤسسات في مصر منذ بداية الفتح الإسلامي، وتاريخ السلطان المملوكي قلاوون، وتاريخ التجارة بين الشرق والغرب. واهتم كذلك بموضوعات من التاريخ الحديث فدرس تاريخ استقرار الإنجليز في الهند، ومهمة السير "هارولد جونز برايدجز"، وتاريخ فتح علي شاه، كما كتب بحثًا عن إنجازات محمد علي في مصر متعرضًا بذلك إلى قضايا تتعلق بالشرق أثارت حفيظة "لويس فيليب."[1]

لقد كان البحث في الديانات الشرقية يستجيب لفضول عظيم لديه، ومن هنا كان بحثه في الزرادشتية لفهم الظاهرة الدينية في بلاد فارس القديمة، وبحثه عن ديانة البالبين والتدين الصوفي في الإسلام، وأخيرًا بحثه عن ديانة الدروز، وقد "استفاد المستشرقون من بعده مما كتبه في استجلاء ديانة الدروز وعلاقتهم بالخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله؛ ذلك أنه حصّل معلوماته من النظر العميق في نصوصهم الدينية المكتوبة باللغة العربية ولم يكن من

(1) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article); p22.

السهل قراءتها وفهم جوانبها النظرية".[1]

ومن قطاعات البحث التاريخي المهمة في تلك الفترة قطاع يتناسب مع النزعة الموسوعية لسيلفستر دو ساسي ومنهجه؛ ونعني به تاريخ المسكوكات أو النقود (Numismatique) الذي كان له فيه باع كبير، ويقول عنه: "داسييه Dacier" في ذلك: "إن علم المسكوكات قد تطور معه كثيرًا فبفضله هو أمكن فهم كل الكتابة المنقوشة والمحفورة على السكة خاصة ما تعلق ببلاد فارس؛ بما في ذلك المسكوكات التي تعود الى القرن الثالث لميلاد المسيح، فضلاً عن المسكوكات العربية. ولا نعرف هل نستغرب من معرفته الواسعة أم من صرامته ودقته في العمل."[2] لقد فتح حقولاً للبحث كانت مجهولة قبله، ولم يجرؤ أحد على اقتحامها، فكل المستشرقين مجمعون على تقدير الخدمة الجليلة التي قدمها "سيلفستر دو ساسي" للدراسات الاستشراقية وخاصة لما ترجم إلى الفرنسية كتابا في المسكوكات الإسلامية وكتابًا آخر في الموازين والمكاييل والأطوال المعيارية القانونية في الإسلام، وهو كتاب "شذور العقود في ذكر النقود" للمقريزي [3].

---

(1) المرجع السابق، ص 23 .

(2) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article). p23.

(3) Bibliothèque de M le Baron Silvestre De Sacy, imprime par autorisation de M le garde des sceaux, MDCCC XLII, p8.

ولم يكن تاريخ العرب والمنطقة الشرقية الاهتمام الوحيد لشيخ المستشرقين الفرنسيين بعد الدراسات العربية، فقد كان له اهتمام بمؤلفات الجغرافيين العرب وخاصة فيما سُمي بالعصر الوسيط، مثل كتاب "المسالك والممالك" لابن حوقل، و"وصف بلاد العرب" لأبي الفداء، وكتاب "رحلة ابن بطوطة"، وتميّز عن الجغرافيين المعاصرين له بأنه درس هذه الكتب في لغتها الأصلية، كما ظهر اهتمامه بالجغرافيا في مقالاته عن بلاد فارس وبحثه في أصول شعب البلوشستان.

لقد برع "دو ساسي" بشكل خاص في كتابة التقارير النقدية حول الكثير مما كان يقرؤه من بحوث ومقالات تتعلق بالدراسات الاستشراقية فكان يلخص فيما يقارب الاثنتي عشرة صفحة، كتابًا صدر حديثًا، ويضيف إلى الخاتمة التي وضعها المؤلف وجهة نظره في الموضوع، وقد كثرت منشوراته من هذا الجنس كثرة بالغة. وإضافة إلى ذلك، تعاون مع الكثير من الدوريات المعروفة في عصره، ومنها: مذكرات أكاديمية الآداب والوثائق القديمة، وقد كان عضواً أساسيًا فيها إلى جانب دورية كانت تحمل عنوان "ملاحظات ومنتخبات من المخطوطات"، ودورية أخرى سبقت الإشارة إليها، هي "المجلة الموسوعية" التي كان يشرف عليها "ميلان"، ودورية بعنوان "حوليات الأسفار" التي يشرف عليها "مالت بران"، والمجلة الآسيوية. ففي سنة 1822 ألف بمساعدة "ريموزا"

Jean Pierre Abel Remusat[1] وتلاميذه الجمعية الآسيوية ومجلتها الشهيرة وانتُخب رئيسًا لها وقام على رئاستها ست عشرة سنة"[2].

وكان المشرفون على المكتبة الوطنية الفرنسية يدرجون بشكل دائم مقالات موقعة باسم "سيلفستر دو ساسي"، ومقالات فيها اسمه إلى جانب اسم آخر من المستشرقين من تلاميذه أو أقرانه؛ فقد كان يعمل على التعريف بأبرز المستشرقين وأعمالهم، ومن ذلك أنه كان يشارك في مشاريع يقوم بتأليفها مستشرقون من غير الفرنسيين كالمستشرقين الألمان مثلاً، وليس هذا بغريب عنه؛ فقد كانت بداياته في الكتابة من خلال دورية أجنبية، حيث أدرج أيكورن Eichhorn[3] في ما يصدره باسم الـ Repertorium (الفهرست) مقالاً للمستشرق الشاب الذي لم يتجاوز وقتها اثنتين وعشرين سنة دون أن يفصح عن اسمه. وفي السنة التالية أدرج له مقالا صدّر له بقوله: "مقال لصديق لي من باريس سيلفستر دو ساسي، وهو مستشار الملك في شؤون المسكوكات المالية، أرسل لي مقتطفًا من

---

(1) جان بيار هابيل ريموزا، مستشرق مختص بالدراسات الصينية واليابانية، توفي في 1832 بالكوليرا وأبنه دوساسي، وكان مقربا منه وأسس معه المجمع الآسيوي، كان عضوا في أكاديمية الآداب والنقوش.

(2) العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج 1، دار المعارف بمصر، 1964، ص180 .

(3) جوهان جوتفريد إيكورن، مستشرق ألماني ومتخصص في علم اللاهوت، توفي في 1827، كانت بينه وبين سيلفستر دو ساسي علاقة وطيدة ومراسلات كثيرة.

مؤلف تاريخي لجلال الدين السيوطي يتعلق بتاريخ التجارة في مصر وفي ما يلي المقتطف من الكتاب مشفوعًا بالترجمة"[1].

وكانت النظرات القليلة التي ألقاها "دو ساسي" على تاريخ فرنسا تهدف إلى إضاءة مشاغله الأساسية المتعلقة بتاريخ العالم العربي والمشرقي بشكل عام، وخاصة إضاءة علاقات ملوك فرنسا بالملوك في هذين العالمين، ومن ذلك ما كتبه حول الميثاق الذي كان بين ملك تونس و"فيليب لو هاردي" في سنة 1270؛ وذلك لإجلاء الجنود الصليبيين من التراب التونسي، وكذلك الشأن بالنسبة إلى مراسلة من الامبراطور المغربي يعقوب مع الملك فيليب لو هاردي الثاني، ومراسلة أخرى بين "تيمورلنك" و"شارل السادس"[2].

وجد دو ساسي نفسه مدفوعًا إلى دراسة تاريخ دول البحر المتوسط، وكانت تلك المرة الوحيدة التي غادر فيها باريس لزيارة مملكة جينوفا وفحص ما تحتويه مكتبتها من وثائق قيّمة، وكان ذلك في الثاني من أغسطس 1805، وقد قُدِّمت له كل التسهيلات لعمله بصفته خبيرًا في لغات الشرق. وقد تبين له أن المكتبة لم تكن تحتوي على مخطوطات، وكل ما كان فيها هو وثائق مهمة يمكن أن تضيء علاقات مملكة جينوفا بمملكة أراغون وصقلية وتونس

(1) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article) P 22.

(2) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article); p 19 .

وطرابلس ومصر وبلاد الشام وأباطرة بيزنطة والسلاطين العثمانيين. كما اكتشف بعد الاطلاع على وثائق "بنك سان جورج" ما يؤكد العلاقات التي كانت بين جينوفا وجزيرة القرم ومنطقة بيرا، وقد نشر الكثير من هذه الوثائق في الدوريات التي كان يتعامل معها.

فضلا عن كل هذه التخصصات كان "سيلفستر دو ساسي" خبيرًا في الخطوط (Epigraphie) فمنذ أن علم باكتشاف "حجر رشيد" أيقن أن فكّ شفرته سيكون سبيلاً لفهم تاريخ مصر. تُرك هذا اللوح المكتوب بين يدي الموظفين الإنجليز، ومن ثم انتقل إلى المتحف البريطاني. ولكنه منذ أن حصل على نسخة مصورة عن هذا اللوح استطاع أن يفك شفرة اللغة الديموطيقية Demotique (اللغة اليومية في مصر القديمة)، وهي كتابة وسط بين الكتابة الهيروغليفية والكتابة الإغريقية.

قال "موريه" متحدثًا عن تجربة "دو ساسي" في دراسة هذه الكتابة: "لقد افترض أن الأيقونات التي رتبها إلى خمس وعشرين أيقونة تمثل التشكيل الصوري للألفباء الديموطيقي فرتبها مفترضًا جدولاً بخمسة وعشرين حرفًا من الألفباء للغة المصرية التي تحدث عنها بلوتارك، وبالاستعانة بمعرفته باللغة الإغريقية استطاع أن يكشف عن أماكن الأسماء الملكية واستطاع أن يعرف العلامات الديموطيقية التي تشير إلى اسم بطليموس وأرسينويه. وعلى الرغم من جهوده، ومن بعده جهود المستشرق السويدي "أكربلاد" لم

يستطع أحد أن يفك شفرة النص الديموطيقي[1] وأن يكشف مضمون المكتوب في هذا الحجر ويقدم قراءة دقيقة"[2]. اهتم دو ساسي عن كثب بمتابعة التطور في فهم اللغة الهيروغليفية؛ فقرأ ما كتبه المستشرق النمساوي "جوزيف فون هامر" الذي ألف كتابًا يكشف أسرار هذه اللغة فنظر فيه وكتب عنه تقريرًا دقيقًا ومفصلاً. وكان له اهتمام باللغة السريانية[3] كذلك فهو يرى أن هذه اللغة: "تستحق أن تدرس وذلك ليس فقط لقيمتها وأهميتها؛ بل لدورها الكبير في تيسير فهم اللغة العبرية."[4] وكذلك كان موقفه من دراسة الأدب السرياني فقد كان يعتقد أنه يمكن أن يساعد في فهم النصوص

---

(1) لعله حريّ بنا الإشارة إلى أن بعض الدراسات عدّلت هذا الرأي وبيّنت دور "ابن وحشية" في الكشف عن الألفباء الهيروغليفي في كتابه "شوق المستهام إلى معرفة رموز الأقلام"، انظر:
علم، يحيى منير، ابن وحشية النبطي وريادته في كشف رموز هيروغليفية في كتابه " شوق المستهام "، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 79 الجزء 4.

(2) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article) p24.

(3) Chabot Jean-Baptiste. Silvestre de Sacy et les études araméennes. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 82e année, N. 1, 1938.; doi : https://doi.org/10.3406/crai.1938.76983 https://www.persee.fr/doc/crai_0065-0536_1938_num_82_1_76983(Fichier pdf généré le 04/10/20180 ; p 75 .

(4) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article) p 32 .

الدينية القديمة، مثل العهد الجديد وسير رجال الكنيسة وتاريخهم إلى جانب فهم التعاليم الدينية والمذاهب فضلاً عن فهم التاريخ السياسي.

وفي سنة 1825 ألقى "دو ساسي" نظرة على مجموعة من الصحف المخطوطة المصرية فاستطاع - بفضل دقته وعينه الخبيرة بالمخطوطات- أن يكتب بحثًا حول تطور الخط العربي وأن يبيّن قيمة هذه المخطوطات في أنها تكشف عن بعض الجوانب من تاريخ الإسلام وتاريخ البلاد العربية؛ ففي غياب التأريخ الدقيق لبعض الأحداث والوقائع تبقى وثائق الأرشيف خير دليل على ما سقط من التاريخ من أحداث.[1] ولا ينكر الدارسون دوره التوجيهي لتلميذيه "ج ل أسلان دو شارفيل" J. L. Asselin De Cherville [2]

(1) Dutaillis Charles. La vie de Silvestre de Sacy; p Petit.

(2) جان لويس أسلان دوشارفيل، مستشرق فرنسي توفي في مصر في 1822. سافر في 1806 إلى القاهرة حيث عيّن مترجمًا للقنصل الفرنسي ثم عيّن نائب قنصل ثم اقترح عليه أن يكون قنصلا في الإسكندرية لكن ظروفه الاجتماعية حالت دون ذلك. استقر في 1816 في الإسكندرية وعمل مترجما للقنصل. ساهم في الاكتشاف والدراسة الفيلولوجية للغتين الجعزية والأمهرية. كان يمتلك 1500 مخطوط شرقي وضمنها مخطوطات من القرآن الكريم عهد بها بعد وفاته إلى "ميشيل عماري" وبيعت كل المجموعة للمكتبة الوطنية الفرنسية. نقلا عن:
Henri Dehérain, « Asselin de Cherville, drogman du consulat de France en Égypte et orientaliste. (premier article) », *Journal des savants*, avril 1916, p. 176-187 (DOI 10.3406/jds.1916.4547)

و"ودوسلان" W. De Slane[1] في الكشف عن أنواع الخط العربي وتاريخها وتغيير وجهة النظر العلمية التي تذهب إلى أن الخط الكوفي هو أصل الخطوط العربية حيث كان يشتغل معهما على هذه المجموعة المصرية التي ضمت عدداً كبيراً من المصاحف القرآنية التي تعود إلى المرحلة ما بين القرنين السابع والعاشر للهجرة؛ لكن وفاته أخَّرت نتائج هذا المشروع الذي كشفت عنه ملاحظات "دوسلان" في ما أنجزه من فهرسة للمخطوطات، إلى جانب البحث الذي نشره "دارنبورغ" في 1910 وفيه تعريف بنوع من الخطوط شبه المجهولة لدى الدارسين وهو الخط الحجازي[2].

---

(1) William Mac Guckin, baron de Slane، مستشرق شهير من أصول إيرلندية، قدم إلى فرنسا لدراسة اللغات الشرقية وتتلمذ على "دو ساسي"، أنعم عليه الملك الفرنسي شارل العاشر بلقب "بارون" في 1838 وحصل في السنة نفسها على الجنسية الفرنسية. ساهم في إخراج الكثير من النصوص التراثية وخاصة منها نصوص الجغرافيين العرب والمؤرخين فجمع مقاطع حققها وترجمها لأبي الفداء من كتاب تكوين البلدان ومقاطع من وفيات الأعيان لابن خلكان ومقاطع من مقدمة ابن خلدون ورحلة ابن بطوطة وغيرهم. كلف بالجرد والفهرسة للمخطوطات الشرقية في مكتبات الجزائر ومالطة وإسطنبول. عاش في الجزائر وأسس الجمعية التاريخية الجزائرية. توفي في 1878. نقلا عن: *Dictionnaire des orientalistes de langue française*, sous la dir. de François Pouillon, Paris, Karthala, 2008 (2e éd.), p. 902

(2) Déroche François. La paléographie des écritures livresques dans le domaine arabe . In: Gazette du livre médiéval, n°28. Printemps 1996. pp. 1-8; doi : https://doi.org/10.3406/galim.1996.1328 https://www.persee.fr/doc/galim_0753-5015_1996_num_28_1_1328

4 - علاقته بالمستشرقين وتاريخ الاستشراق:

تعهد "دو ساسي" علاقته بالمستشرقين المعاصرين له فكان يتبادل معهم المراسلات[(1)]، ولم يكن يبخل على كل من يستشيره في مسألة من المسائل التي تدخل في مجال تخصصه، ولاسيما ما تعلق منها بالمخطوطات العربية[(2)]، وتاريخ مصر واللغات الشرقية، فكان يراسل الكثير من المستشرقين الأوروبيين، مثل السير ويليام جونز[(3)] Sir William Jones الذي كان مختصًا في اللغتين السنسكريتية والفارسية، وكذلك دافيد ميكايليس David Michaelis سكرتير أكاديمية جوتينجان Goettinguen، ومع "جودوفروا إيكورن" Godefroi Eichhorn مدير المجلة التي نشر فيها أول مقالاته، وخاصة البحث المتعلق برسائل السامريين إلى جوزيف سكاليجيه Joseph Scaliger [(4)].

---

(1) Dussaud René. Henri Dehérain. — Silvestre de Sacy, 1758-1838, ses contemporains et ses disciples . In: Syria. Tome 19 fascicule 4, 1938. pp. 372-373; https://www.persee.fr/doc/syria_0039-7946-1938 num_19-4-8373 _t1_0372_0000le 9/11/2019_

(2) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (premier article) p 266.

(3) هو مستشرق بريطاني ولد في 1746 في لندن في وستمنستر وتوفي في الهند في 1794، كان يتقن أكثر من ثلاث عشرة لغة، يعدّ أول مستشرق عرّف الغرب بالمعلقات، أسس في كلكتا الجمعية الآسيوية سنة 1784.

(4) في 1783 نشر سيلفستر دو ساسي في الـ repertorium أو الفهرست الذي أصدره المستشرق جوتفريد إيكورن رسائل السامريين إلى المستشرق والعالم بالكلاسيكيات الفرنسي جوزيف سكاليجيه محققة في العبرية مع ترجمة إلى اللاتينية وتعليقات وكانت تلك أول محاولة له في النشر لفتت إليه الانتباه ومهدت لحصوله على عضوية =

كانت له مشاركات في مؤلفات لكثير من زملائه المستشرقين. ومن ذلك خاصة الملاحظات الكثيرة والإضاءات التي قدمها لـ"ج ب ليونار دوران" Jean Baptiste Leonard Durand عند تأليف كتابه "رحلة إلى السنغال"، وكذلك الشأن بالنسبة الى كتاب رحلة الى الهند الشرقية لـ "ب بولان دي سانت بارتيليمي" P.Paulin De Saint Barthelemy[1] [2]. وتكشف المراسلات بينه وبين القنصل العام الفرنسي في البصرة "جان باتيست لويس جاك روسو" Jean Baptiste Louis Jacques Rousseau عن الدور الذي كان له في الكتاب الذي أصدره روسو في 1809 بعنوان "وصف نظام الباشليك في بغداد"؛ متبوعًا ببحث تاريخي في الوهابية وبعض الوثائق حول تاريخ الشرق حيث إن إخراج هذا الكتاب بالصورة العلمية المطلوبة كان بفضل التوجيهات

= الأكاديمية، أكاديمية الآداب والنقوش. شغل جوزيف سكاليجيه (ت 1609) كرسي الدراسات الكلاسيكية في ليدن منذ 1593 حتى وفاته وكان عارفا باللغات اليونانية واللاتينية والعربية، والعبرية، والفارسية، والسريانية. ذهب إلى ان الإسكندر المقدوني الملقب بالإسكندر الأكبر هو ذو القرنين المذكور في سورة الكهف مستدلا على ذلك ببعض المسكوكات ويبدو أنه لم يطلع على مؤلفات الكثير من المؤرخين العرب الذين نفوا ذلك. نقلا عن موسوعة المستشرقين، ص 25 (بتصرف) (الزيادة منا)

(1) بولينوس دو سان بارثولومي، مستشرق ورجل دين نمساوي توفي في 1806، كان في مهمة في الهند وألف كتابا عن نحو اللغة السنسكريتية.

(2) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article), p 27.

والإضاءات التي تضمنتها ردود "دو ساسي" المكتوبة وجواباته على ما يصله من استفسارات.(1)

كما أشرف على الطبعة الثالثة من كتاب "بحوث حول خفايا إلوسيس" لصديقه المستشرق الكونت "أوفاروف" Ouvarov، والطبعة الثانية من بحث صديقه المستشرق البارون "دي سانت كروا Guillaume De Sainte Croix" المتوفى في 1809 وعنوانه "بحوث تاريخية ونقدية حول خفايا الوثنية ".

ولعل إشعاع دو ساسي يعود إلى موسوعية أعماله وشموليتها وعمقها؛ فقد كان جل المستشرقين لا يستنكفون من وضع أعمالهم بين يديه لتحكيمها وتدقيقها وإبداء رأيه فيها. وكان يحظى بتقدير منهم كبير واحترام؛ فمكانته مرموقة بين زملائه في معهد اللغات الشرقية، أو في الكوليج دو فرانس، وتلاميذه، وتشهد بذلك رسائل التقدير الكثيرة التي كانت تصله من مستشرقين وتلاميذ من أوروبا والشرق معبرة عن مشاعر الامتنان.(2) ويمكن أن نستشهد على ذلك برأي "ويليام مارسي" الذي يتجاوز فيه الإعجاب الشديد إلى تثمين دوره بالنسبة إلى الأجيال اللاحقة

---

(1) Dehérain Henri. Correspondance de Silvestre de Sacy et du conseil de J. B. Louis-Jacques Rousseau. In: Journal des savants. 12e année, Août 1914. pp. 367-371; doi : https://doi.org/10.3406/jds.1914.4277 https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1914_num_12_8_4277

(2) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article), pp27-28 .

حيث يقول: "نتساءل كيف كان يمكن أن تكون الدراسات العربية في فرنسا؛ بل وأروبا كلها لو لم يكن سيلفستر دو ساسي موجودًا؟ إن ما قدمه هذا العالم باللغة العربية وآدابها يفوق ما قدمه الكثير من المختصين؛ بل إن ما قدمه يمكن أن يضاهي ما يمكن أن تقدمه أجيال كاملة ومن دون أن نقلل من النصيب الذي خصصه للتخصصات الأخرى يمكن أن نقول: إنه بعث الفيلولوجيا الحديثة للعربية ووضع أصول البحث في الدراسات الإسلامية وفتح طريق البحث في تاريخ الشعوب الإسلامية "[1].

كوّن "دو ساسي" أجيالاً من المستشرقين الذين مكنهم تخصصهم من الحصول على مناصب محترمة وحققوا شهرة، ومنهم "جوزيف رينو" Joseph Reinaud[2] الذي رأس كرسي اللغة العربية بعده، و"إدوارد رووس Edward Reuss" [3] الذي كان

(1) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant, p 79 .

(2) جوزيف توسان رينو، مؤرخ ومستشرق فرنسي، توفي في باريس في 1867 كان محافظا لمعهد المخطوطات الشرقية، له دراسات عن الحروب الصليبية وعن رحلات العرب والآثار الإسلامية.

(3) إدوارد غيوم أوجين رووس، عالم دين وجامعي مختص في الدراسات البروتستانتية، اتصل بسيلفستر دو ساسي خلال سنتي 1827 و1828، توفي في 1891، ينتمي الى جامعة جوتنجان وهي من أعرق الجامعات الألمانية التي احتضنت الدراسات في الرياضيات ومختلف التخصصات فضلا عن جملة المستشرقين الألمان، جمعه مع المستشرق الفرنسي البحث في نصوص العهد القديم والفيلولوجيا التي درسها عن العالم جوهان جوتفريد ايكورن الذي كان من أول من راسلهم دو ساسي.

مختصًا في تفسير نصوص العهد القديم في ستراسبورغ، وغيوم بوتييه Guillaume Pauthier [1] وكان مختصًا في اللغة العربية ثم انتقل إلى الصينية، وكذلك "شارموي" Charmoy و"دومانج" Demange[2] اللذان أسسا كرسيًا لتدريس العربية في سان بترسبورغ، ونويل دي فارجي Noel De Vergers [3] الذي كتب كتابًا مهمًا عن الجزيرة العربية، و"إمانويل سيديلو" Emmanuel Sedillot[4] الذي وضع مؤلفًا عن علماء الفلك العرب. ومن بين تلاميذه اثنان نوه بهما هو نفسه، وهما "أنطوان ليونار دو شيزي" Antoine Leonard De Chezy[5] و"غارسان دي تاسي" Garcin

---

(1) غيوم بوتييه، مستشرق وشاعر فرنسي، توفي في 1973، له دراسات عن الهند والصين وترجمات مختلفة منها ترجمة نصوص لكونفيشيوس.

(2) فرانسوا برنار شارموي وجان فرانسوا دومانج مستشرقان فرنسيان من تلاميذ دو ساسي درسا العربية في روسيا وذلك في إطار التبادل مع صديقه المستشرق الروسي سرجاي سمينوفيتش اوفاروف.

(3) أدولف نويل دي فارجي، مستشرق وعالم آثار فرنسي، اهتم بتاريخ إيطاليا القديم. توفي في 1867. نشر كتابا بعنوان حياة محمد وهو مستخرج من تاريخ أبي الفداء "كتاب المختصر في أخبار البشر" وقدم فيه تحقيقا لهذا الجزء مع ترجمة بالفرنسية.

(4) "جان جاك إيمانويل سيديو" مستشرق وفلكي فرنسي توفي في باريس في 1832 بعد إصابته بالكوليرا، ترجم كتاب جامع المبادئ والغايات للفلكي المغربي أبي الحسن المراكشي.

(5) أنطوان ليونار دي شيزي، مستشرق فرنسي توفي بالكوليرا في 1832، تخصصه في اللغة السنسكريتية، اشتهر بنقل أشهر النصوص الأدبية السنسكريتية إلى الفرنسية.

De Tassy[1]. ولما كان منتصراً للأول فقد ساعده في سنة 1814 على تأسيس كرسي للدراسات السنسكريتية في الكوليج دو فرانس ورئاسته[2]. وكانت تربطه بهذين التلميذين علاقة علمية وحب متبادل بلغ حدود العلاقة الأبوية حتى إنه لم يفسد ميله إلى الأول بحبه للثاني الذي ساعده كذلك في إقامة كرسي للدراسات الهندوستانية في الكوليج دو فرانس. وكان لسيلفستر دو ساسي تلاميذ عملوا في الجزائر على إحياء تدريس العربية وتأسيس المنهج العلمي لمدرسة الاستشراق الفرنسي هناك[3]، ومن أبرزهم تلميذه السابق "لويس برسنييه". Louis Bresnier[4] كما دعم "أ ج بورنوف وشامبوليون" Champollion[5] الذي توصل الى فك رموز اللغة

(1) غارسان دو تاسي، مستشرق فرنسي توفي في مرسيليا في 1878، كان متخصصا في الدراسات الهندية وأول متخصص في فرنسا في الدراسات الهندوستانية وعرف كذلك بمترجماته من التركية والعربية والفارسية.

(2) المقداد، محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ص 198 .

(3) Messaoudi Alain, Les arabisants de la France coloniale 1780-1930; ENS editions ; Lyon 2015, chap 5 .

(4) لويس برسنيه، مستشرق فرنسي ولد في 1814 بمونتارجيس وتوفي في الجزائر في 1869 يعدّ أول معلم للغة العربية في المستعمرة الجزائرية وقد أرسل إلى هناك بتوجيه من سيلفستر دو ساسي أستاذه، أشرف على تكوين الكثير من المترجمين، تخصص في التأليف في النحو. له كتاب بعنوان "دروس نظرية وتطبيقية في اللغة العربية ".

(5) جان فرانسوا شامبليون، توفي في 1832، عالم مختص بالمصريات ومستشرق، كان يتقن العربية والقبطية، اشتهر بفكه رموز الهيروغليفية، التقى دو ساسي في 1822.

المقدسة فاتحًا بذلك الطريق لغيره.[1]

وكان دو ساسي يراسل القناصل المسؤولين عن المناطق في أرجاء العالم الإسلامي (البصرة والقاهرة وحلب وغيرها) كافة، وكانت بينه وبينهم مبادلات علمية وإخوانيات، وتكشف بعض مراسلاتهم عن جهودهم في تحصيل أنفس المخطوطات العربية وتمكينه منها.

وعلى الرغم من رفض "دو ساسي" للثورة، لم ينكر انتعاش الدراسات الاستعرابية والاستشراقية في وقتها، هذا الانتعاش الذي كان من ثماره إنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية، وهي مؤسسة تعليمية وسياسية في آن، فقد تأسست في 1795 لدعم وظيفة منوطة بها ذات صبغة ديبلوماسية وتجارية، ومعنى هذا أنها كانت موجهة لتخريج الديبلوماسيين والمترجمين. وقد كان تأسيسها تأسيًا بمدرسة اللغات الشرقية التي أسستها الإمبراطورة "ماريا تيريزا" في فيينا؛ إلا أن حلول "سيلفستر دو ساسي" بها وما بذله من جهد في تثبيت المنهجية العلمية لمنظومة بحثية قائمة على صرامة التحقيق العلمي والنزعة الموسوعية، حوّلها تحويلاً جذريًا وحقق لها إشعاعًا تجاوز حدود فرنسا. فقد أصبحت كعبة الطلاب يتقاطرون إليها من ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا والسويد وإسبانيا وفنلندا وغيرها ليتخرجوا على "دو ساسي" في

(1) المقداد، محمود، الدراسات العربية في فرنسا، ص 198 .

اللغتين الفارسية والعربية ويعلموها في بلدانهم؛ فلم تزدهر مدرسة استشراقية في الغرب ازدهارها في فرنسا، ومعظم من نبغ في ذلك العصر كان من طلابها، ومن أساتذتها الشرقيين ناصيف معلوف اللبناني (ت 1865) [1]. وهي تضم اليوم أقسامًا للعربية الفصحى ولهجات المغرب". [2]

لا يختلف الدارسون حول الأثر الذي أحدثه "دو ساسي" في مدرسة اللغات الشرقية حيث وجهها وجهة بحثية صرفًا ما أثمر جيلاً كاملاً من المستشرقين من تلاميذه الذين انصرفوا في اتجاهات علمية متنوعة [3]، ولكن هذا لم ينف قيام أغلبهم بمهام سياسية ونهوضهم بما هو مطلوب منهم تنفيذًا للسياسة الفرنسية، أو تعاونهم مع سلطة الإشراف في مشاريعها العسكرية والديبلوماسية.

---

(1) ناصيف المعلوف، ولد في قرية زبوغة سنة 1822 وتوفي قرب إزمير بتركيا سنة 1865، كان عالما بعدد من اللغات منها التركية والإيطالية والفرنسية. وضع معجما مزدوجا فرنسيا تركيا، أشاد به تلميذ "دوساسي" جوزيف رينو وشكره على دوره في دعم الدراسات الفارسية والتركية وكذلك أشاد به غارسان دوتاسي. نقلا عن:
https://www.hindawi.org/books/68475816/39/
(تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر).

(2) العقيقي، نجيب، المستشرقون، ج 1، ص 153 .

(3) Janin R. Dehérain (H.), Sylvestre de Sacy, ses contemporains et ses disciples. In: Échos d'Orient, tome 37, n°191-192, 1938. pp. 480-482; https://www.persee.fr/doc/rebyz_1146-9447_1938_num_37_191_3006_t1_0480_0000_3 Fichier pdf généré le 14/01/2019

ومن ذلك أن اثنين من تلامذته القدامى كان لهم أثر بارز في الحملة الفرنسية على مصر أحدهما، هو "جان جوزيف مارسيل"[1] Jean Joseph Marcel، وهو المدير السابق للمطبعة القومية في القاهرة، والثاني هو "أميدي جوبار" [2] Amedee Jaubert، وقد كان بعد وفاة "فونتير دي بارادي" Venture De Paradis المترجم الخاص للجنرال بونابارت، وقد أرسل رسالة لأستاذه "سيلفستر

(1) جان جوزيف مارسال، شارك في الحملة على مصر، يمكن القول إنه مهندس ومترجم ومستشرق، عمل مديرًا للمطبعة العامة في القاهرة، توفي في 1854.
نقلا عن:
A. Taillefer, « Notice historique et biographique sur J.J. Marcel (1776-1854) », dans *Revue de l'Orient, de l'Algérie et des colonies. Bulletin des actes de la Société orientale, algérienne et coloniale de la France*, t. XVI, octobre 1854, p. 316-325, (بتصرف)

(2) أميدي جوبار، توفي في 1847، أرسلته حكومة الديراكتوار في حملة بونابارت إلى مصر بصفة مترجم ثان ولما توفي المترجم الأول في سوريا أمسى المترجم الوحيد والملازم للقائد عمل مدرسًا للغة التركية في مدرسة اللغات الشرقية وأمينا للسر ومترجًما للقرارات الصادرة بخصوص الشرق لدى الحكومة ومديرًا لمدرسة اللغات الشرقية ثم عميدا لها ومستشارا للحكومة وعضوًا في مجلس الشيوخ ورئيسا للجمعية الآسيوية. لم يكن كثير التآليف، له كتاب يصف رحلته إلى أرمينيا وكتاب في نحو اللغة التركية كما ساعد على إخراج نزهة المشتاق للإدريسي بخرائطها متنا وترجمة في جزأين في 1836 وساعد "دو ساسي" في إخراج الرسالة المتنفذة من ديوان مصر إلى بونابارت متنا وترجمة التي نشرتها جريدة "مونيتور" الباريسية.
عن كتاب "المستشرقون" نجيب العقيقي، ص 183، بتصرف.

دو ساسي" يخبره عن الوضع هناك، ويثني على إتقانه اللغة العربية: "يتحدث الناس هنا (في القاهرة) العربية بفصاحة نسبية فرجال الدين يستعملونها في خطبهم وشيوخ القبائل يستمدون من معرفتها شرفًا وفخارًا ، ولكن لا أحد يصل إلى درجة إتقانك لها. لقد تيقنت من ذلك بنفسي، وأحب أن أضيف أنني لا أجاملك ولا أطريك إن قلت إنك أستاذهم جميعا." [1]

لقد كان الاستشراق الفرنسي مؤسسة فاعلة ورافدًا مهمًا للسياسة الخارجية الفرنسية تدعمها بالمعلومات الأساسية وتسخّر الأبحاث المعمقة في تاريخ الثقافات واللغات الشرقية في سبيل منح السلطة الحاكمة ما تحتاج إليه من معطيات لمعرفة الاستراتيجيات المثلى للتعامل والتحاور مع المجتمعات المستعمرة. ولم نجد فيما اطلعنا عليه من إسهام "دو ساسي" أو تلاميذه في المهام التي أنيطت بهم في التنسيق الإداري والتوجيه العلمي ما يدل على استنكارهم الأطماع الاستعمارية أو نقدهم السياسة الفرنسية.

ولم يكن يُعرف في الأوساط الفرنسية أن التخصص في الدراسات العربية والشرقية يرفع من منزلة صاحبه حتى جاء "سيلفستر دو ساسي"؛ فقد بلغ من الحظوة التي نالها والاحترام والصيت الذي عم كل أوروبا أن الجيوش الألمانية والإنجليزية التي غزت فرنسا في 1814 امتنعت عن إلحاق الأذى بممتلكاته

---

(1) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article), p29.

وممتلكات كل من احتموا به تقديرًا لمكانته العلمية واعترافًا بدوره المحوري في الاستشراق الفرنسي والأوروبي[1]. كانت سمعته تتخطى حدود القارة الأوروبية؛ فلم يكن مقدرًا فقط لدى زملائه من المستشرقين الفرنسيين؛ بل كان يستشار في تعيين الأساتذة في الدراسات الشرقية وفي اقتناء المخطوطات، وكان مستشارًا معتمدًا لدى مراكز البحث والمكتبات. كانت له علاقات مع المستشرقين الدنماركيين والمستشرقين السويديين، لكن أكثر علاقاته كانت مع ألمانيا والمستشرقين الألمان[2]، وكان المستشرقون يراسلونه طالبين النصيحة أو طالبين أن يقوم ببحث في المكتبة الملكية ليفيدهم في ما يطلبونه من معلومات عن رصيدها من المخطوطات، وكلهم كان يجمع على معرفته العميقة باللغات الشرقية وتبحره في تخصصات الدراسة، فضلاً عن دراية واسعة بالمسكوكات، كما يعجبون كثيرًا بخلقه وكرمه ولطفه العظيم ودقته المتناهية في المواعيد، وحرصه على القيام بكل أعماله بتفان، وخاصة الإدارية منها فقد كان يحضر كل الاجتماعات في وقتها ولم يكن يغيب عن أي منها.[3]

---

(1) بدوي عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت 1993، ص 336 .

(2) Espagne Michel, Silvestre De Sacy et les orientalistes allemands, *Revue germanique internationale* [En ligne], 7 | 2008, mis en ligne le 15 mai 2011, consulté le 23 décembre 2020. URL : http://journals.openedition.org/rgi/398 ؛ Doi : https://doi.org/10.4000/rgi.398

(3) Dehérain Henri. Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article), p 32 .

ومن المفيد أن نشير إلى أن ظهور "دو ساسي" في عالم الدراسات الاستشراقية كان بمثابة استجابة لهاجس معرفي لدى الرجل فهو لم يكتف بإتقان اللغات الشرقية؛ بل كان مهتمًا بإبراز ما في الحضارات الشرقية من إرث معرفي مهم. ولم يكن يخفي انبهاره بما يجده في بعض النصوص المكتوبة بالعربية من كنوز معرفية ولاسيما في علمي الطب والفلك، وقد يكون هذا السبب وراء تأهيله لعدد من المستشرقين الفرنسيين وفي كامل أنحاء أوروبا[1].

لما جاء "دو ساسي" وبدأ يُعرف لم تكن الدراسات العربية والشرقية مزدهرة في فرنسا، فقد كان معلمه "كاردون" يدرّس اللغة العربية، ولكنه لم يعمل على تكوين من يحملون المشعل بعده فكادت هذه الدراسات تُقبر بعد وفاته، وذلك على الرغم من أنه كان قائمًا على كرسي الاستشراق، و"سكرتيرًا ومترجمًا للملك (..)، كان عالمًا نزيهًا له كتاب عن "تاريخ إفريقية وإسبانيا في حكم البربر"، ولكنه لم يكن متمتعًا بالنظرة الثاقبة التي كانت لغيره."[2] إلا أن واقع الحال تغيّر بعد استلام "دو ساسي" مسؤولية الكرسي وتوليه وظيفة حافظ للمكتبة الملكية فتدفقت المخطوطات

---

(1) تلاميذه من المستشرقين الألمان: كوزغارتن وفليشر وفولرز وفلوغل، وفي إسبانيا دي غيانوغوس، انظر: تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ص 201 .

(2) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et BellesLettres, 82e année, N. 1, 1938. pp.84-85;

على المركز وكثر طلاب العلم في تخصصات الاستشراق المختلفة من المهتمين والباحثين عن وظيفة في المجال الدبلوماسي والترجمة.

سنة بعد سنة تنامى عدد الإصدارات والترجمات والدراسات والرسائل التي تدخل في موضوع الآداب العربية وتاريخ الشعوب الإسلامية. لقد كان دو ساسي عالماً فذًّا جمع بين التعليم والدراسة والبحث العلمي وربط بينها بصلات مثمرة وخصبة. وَفَّر لتلاميذه وسائل مفيدة للعمل وفعّالة وقدم للاستشراق أفضل النماذج، كما كشف عن الكثير من المخطوطات العربية وأظهرها للعالم حيث كان يصرح بكل ما تحقق له في هذا المجال ويطلع باقي المختصين في المجال عليه، إلى جانب ما يتوفر في الأرشيفات المختلفة من وثائق تتعلق بالعالم العربي وتاريخه.

وكان المستشرق الأكثر شهرة آنذاك والمتصدر المشهد في الدراسات العربية: الألماني Reiske رايسكه[1] الذي توفي قبل

(1) يوهان جاكوب رايسكه، مستشرق من الرعيل الأول وعالم باليونانيات، توفي في 1774. حصل في 1738 على نسخة من مخطوطة لمقامات الحريري فحقق المقامة السادسة والعشرين ونشرها، ولكنه لم يكن مقتنعا كثيرا بعمله فسماها "تجربة تلميذ بائسة" كما كان له اهتمام بالشعر العربي فعمل على تحقيق معلقة طرفة بن العبد ونشرها. عهد إليه بترتيب المخطوطات في مكتبة "ليدن"، فكانت تلك فرصة مهمة مكنته من نسخ المخطوطات التي يريدها فنسخ مقاطع من كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وكتاب المعارف لابن قتيبه ومقاطع من تاريخ أبي الفداء. أقنعه المستشرق الهولندي "جاكوب اسخولتز" =

إنشاء كرسي الدراسات العربية في 1795 في باريس. ورث "دو ساسي" إرث هذا المستشرق الشهير وبنى عليه، واستطاع أن يتدارك ما كان سائدًا في البحث الاستشراقي من تخبط منهجي وتشتُّت في الجهود فأرسى مناخًا من التنسيق المتبادل والتواصل بين المدارس الأوروبية وعمّق التوجه الفيلولوجي والمعرفة الدقيقة للنصوص.

ومن أشهر تلاميذه أيضًا المستشرق البولوني "كازيمرسكي" الذي توفي في 1887 واشتهر بقاموسه المزدوج العربي والفرنسي. ولعله حريّ بنا أن نشير إلى شريحة مهمة ممن نسميهم مساعدي المستشرقين أو المستشرقين العرضيين الذين عمل "دو ساسي"

= بالتحول من الدراسات العربية إلى دراسة الطب فحصل على الدكتوراه في الطب وقدم رسالة عن الطب العربي وإسهامات الأطباء العرب في 1746. ترجم مقدمة كتاب "تقويم التواريخ" لحاجي خليفة وهي مقدمة مكتوبة بالتركية وفيها أشار إلى أنه لا يفضل استعمال توصيف "شرقي" للدراسات التي يقوم بها ويقترح تسميتها بالدراسات المحمدية أو الإسلامية لأن الثقافة العربية ليست في الشرق فقط، بل فيها قسم مهم في أوروبا وشمال إفريقيا. وفي هذه المقدمة استطرد بمعلومات عن تاريخ العرب بيّن فيه أن التحول العميق فيه تمثل في ظهور النبي محمد عليه السلام وانتصار الدين الذي كان يدعو إليه وعدّ ذلك تدبيرًا إلهيًا. كانت له معرفة جيدة بالنقود العربية. نشر رسالة ابن زيدون الهزلية بتحقيق وترجمة إلى اللاتينية كما ترجم لامية العجم إلى الألمانية ومنتخبات من الشعر العربي فيها أبيات في الغزل ومرثيتان للمتنبي في 1765. من كتاب " موسوعة المستشرقين"، (بتصرف)، ص 298.

على استقطابهم، وهم مجموعة تم دمجها داخل معهد اللغات الشرقية الحية لمساعدة المتعلمين على إتقان المحادثة باللغة العربية أو باللهجات العربية، وكان جل هؤلاء من الأقباط المصريين أو من الشوام أو من شمال إفريقيا، ومنهم السوري "ميشال الصباغ"، ودوم "رفائيل موناشيس" المصري الذي كان راهب الكنسية القبطية في القاهرة، و"جوزيف عاكوب" المصري أيضًا الذي استقر في مرسيليا وأنتج أكثر من أربعين بحثا منها تقرير بحثي حول رحلة أبي الفداء، ومنهم أيضًا التونسي "موردخاي النجار". وكان جل هؤلاء لاجئين في فرنسا، وخاصة منهم المصريين الأقباط الذين خرجوا في هجرات كبرى بعد حملة بونابارت على مصر، واستطاع بعضهم أن يتغلغل داخل المشروع الاستشراقي للبارون دو ساسي، وأن يشارك بصفة ترجمان في حملة الجزائر، أو بصفة باحث مساعد في الأعمال التي ينتجها غيره، وبعضهم كان ينتقد في جرأة صارخة عربية دو ساسي ومنهجه في التدريس[1] .

5 - لقاؤه مع رفاعة الطهطاوي:

خصص الطهطاوي (ت 1873) الفصل الثاني من كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" للحديث عن الصفات العامة لأهل باريس وتعرّض في أثنائه للقائه بـ"سيلفستر دو ساسي"

(1) Messaoudi Alain, Les Arabisants de La France coloniale ; Ens Lyon Ed; 2015; chap 2

وذلك في سياق التطرّق الى الفرق بين اللغات والأنحاء حيث استطرد لذكر الفرنسيين ممن تعلموا العربية وأتقنوها، وأكّدَ التباين بين إتقان اللغة على السليقة والفطرة واكتسابها بالتعلّم والدربة، فقال واصفًا شيخ المستشرقين: "ومع ما يتراءى أن الأعاجم لا تفهم لغة العرب إذا لم تحسن التكلّم بها كالعرب فهذا لا أصل له، ومما يدلّك على ذلك أني اجتمعت في باريس بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير في بلاد الإفرنج بمعرفة اللغة العربية والفارسية يسمى البارون "سلوستري داساس" وهو من أكابر باريس وأحد أعضاء جملة جمعيات من علماء فرنسا وغيرها، وقد انتشرت تراجمه في باريس وشاع فضله في اللغة العربية حتى إنه لخص شرحًا للمقامات الحريرية وسماه مختار الشروح، وقد تعلّم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه وذكاء عقله وغزارة علمه لا بواسطة معلّم إلا في مبدأ أمره (..) غير أنه حين يقرأ ينطق مثل العجم ولا يمكنه أن يتكلم بالعربية إلا وفي يده كتاب، فإذا أراد شرح عبارة أغرب في الألفاظ التي يتعذّر عليه تصحيح نطقها ولنذكر لك خطبته في شرحه لمقامات الحريري لتعرف نفسه في التأليف وقلم عبارته فإنه بليغ وإن كان به يسير من الركاكة، وسبب ذلك أنه تمكن من قواعد الألسن الإفرنجية فلذلك مالت إليها عبارته في العربية .."[1]

---

(1) الطهطاوي، رفاعة رافع، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، صص 94-95 .

ولا يخفى ما في تحليل الطهطاوي من عمق يُذكّرنا برأي الجاحظ في المتعلّم الذي يحاول اكتساب لغة غير لغته الأم فيدخل عليها الضيم ويتأثر منطقه بهذا الازدواج اللساني، فهو هنا يفسّر سبب الركاكة في تعبير المستشرق الفرنسي بتمكنه من أنحاء اللغات الأعجمية، وهي، وإن تشابهت في ما بينها، تظل غريبة عن العربية، لذلك يبدو التعبير عنده مهما اجتهد فيه بالتفنّن والتأنق وتطلب السجع أحيانًا، غريبَ الروح مركبًا بطريقة لا تشي بصحة السليقة اللغوية. وعلى الرغم من إشادته بمستواه ومنجزاته وشهادته له بالتفوّق والرئاسة، لا يستنكف الطهطاوي من أن يعرّي مساوئ "دو ساسي" فيكشف عن قصور ملكته اللغوية وافتقاره إلى القدرة على المحادثة بالعربية والطلاقة في اللسان.

أما "دو ساسي" فلم يخف إعجابه بشخصية الطهطاوي وتوسمه النبوغ فيه حتى إنه رأى فيه النموذج المنشود للمشرقي الذي يُنتظر منه أن ينقل مآثر الحضارة الفرنسية وفلسفة تقدمها إلى المجتمعات العربية ويقنع بها، ولما سمع عن كتابه "تخليص الإبريز" اطلع عليه وأضافه إلى المصادر التي يعتمدها في تعليم العربية ولم ينكر ما جاء فيه من نقد للفرنسيين وإجحاف في مقارنتهم بالمجتمعات العربية.[1]

---

(1) Messaoudi Alain, Les Arabisants de La France coloniale ; Ens Lyon Ed; 2015; chap 2.

سيلفستر دو ساسي محققًا وشارحًا للنصوص العربية

1- شرح مقامات الحريري:

توزعت أعمال "دو ساسي" بين مجالات شتى واستوعبت الكثير من التخصصات التي يشملها الاستشراق الأوروبي، ولكن ما صنع سمعته العلمية وارتفع بها، هو إسهامه في الدراسات العربية[1]. ولابد من التنويه في هذا السياق بأكثر النصوص العربية التي صنعت شهرته، وهو مقامات الحريري[2] التي عمل على شرحها وتحقيقها وأصدرها على حسابه الخاص. ففي "سنة 1812 صدر قرار إمبراطوري يسمح لسيلفستر دو ساسي بأن ينشر على نفقته في

---

(1) Chabot Jean-Baptiste. Silvestre de Sacy et les études araméennes. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 82e année, N. 1, 1938. P74

(2) Kitāb šarḥ kamm al- Maqāmāt li-al-šayẖ Abī Muḥammad al-Qāsim ibn ʿAlī al-Ḥarīrī 1801-1900.
Description **...** F. 1-79v : Extraits du commentaire publié par S. de Sacy . Commentaires de la ẖuṭba et des maqāmāt 1-5, 13-14, 38-39. GAL, I², ...
https://gallica.bnf.fr/services/engine/search/sru?operation=searchRetrieve&version=1.2&query=%28gallica%20all%20%22silvestre%20de%20sacy%20maqamet%22%29&lan

مطابع الإمبراطورية نسخة محققة بتقديم له من مقامات الحريري، وكان هذا الكتاب[1] حال صدوره إنجازًا لفت الانتباه لهذا المستشرق في الشرق أكثر منه في الغرب. وبمناسبة هذا الصدور والتقديم الذي كان بلغة عربية مسجعة في أغلبها، كتب "دو ساسي" لمتلق لا نعرف بالضبط من هو: "تسألون من علمني العربية ومن هم الشيوخ الذين تتلمذت عليهم، شيوخي الوحيدون هم الكتب، الكتب العربية، هذا مع إقراري بأني لا أستطيع التحدث بالعربية ولم أستمع إليها من أفواه أبنائها. أشعر بالامتنان الشديد لكلامك عن كتبي، وأعبر عن أسفي لأنه لم يتح لي في شبابي أن أسافر إلى مصر أو الشام، وأقر بأنني بعيد عن إتقان هذه اللغة التي أشبهها في اتساعها بالبحر المحيط"[2].

ولعل أكثر ما يلفت انتباه الناظر في شرح مقامات الحريري، هو المقدمة التي أرادها "دو ساسي" متناغمة مع طبيعة النص في سجع لا يختلف كثيرًا عن سجعها، وفي أسلوب لا يبتعد كثيرًا عن أسلوب الكتاب العرب في كتابة المقدمات من حيث الافتتاح بالبسملة والحمدلة والدعاء وكل تلك الديباجة التي يتخذونها عتبة، محاكيًا بذلك تقاليدهم في الافتتاح، ممّا قد يقود إلى

(1) Les séances de Hariri, publie en arabe, avec un commentaire choisi, par M le baron Silvestre De Sacy ; Paris; imprimerie royale; 1822 .

(2) Salomon Georges, in "Bibliothèque des arabisants français, T 1 Silvestre De Sacy, p18.

الاعتقاد بأنه كان يستهدف قراء العربية قبل أن يستهدف المهتمين بأدب الحريري من المستعربين، لكن وجود مقدمة ثانية مكتوبة بالفرنسية في آخر الكتاب تختلف اختلافًا بينًا في أسلوبها ومضمونها عن المقدمة العربية، قد يضعف هذا الاعتقاد. وقد بلغ من شهرة هذ المقدمة- التي سماها خطبة الكتاب- أن نوه بها الطهطاوي في جملة ما نوه به من فضائل "دو ساسي"؛ بل إنه أوردها كاملة [1].

وقد جاء في المقدمة العربية بعد الديباجة استعراض لشُراح الحريري السابقين وإشادة بهم وشرح لغوي لمعنى "مقامة" مستندًا إلى الشواهد الشعرية وغيرها مما يفيد في تعليل المعاني التي تعلقت باستعمال "مقام" وسائر المشتقات القريبة منه، وهو نهج عام اشتهر به المحققون يتفق مع النزعة الفيلولوجية التي تشبّع بها "دو ساسي". وقد ذكر في آخر المقدمة أنه نقل شرح لفظة مقامة في استعمالاتها المختلفة من شرح المطرزي لمقامات الحريري، كما نقل التعريف به من ترجمته الموجودة في كتاب "وفيات الأعيان ".

يقول "دو ساسي" في مقدمة شرح المقامات الحريرية: "الحمد لله العالي المتعالي الذي له الأسماء الحسنى ولا يخالط ذاته عزّ وجلّ من صفات المخلوقات شيء أقصى ولا أدنى، العليم الذي ليس لعلمه نهاية، والحكم الذي حكمه وحكمته

---

(1) الطهطاوي، رفاعة رافع، تخليص الإبريز، صص 95-97.

وراء كل حدّ وغاية، لا يحصر وجوه لاهوته زمان ولا مكان، ولا يشوب صفاء جبروته شائبة زيادة ولا نقصان، مسبب الأسباب الذي لا يتحرّك في أطراف السماوات والأرض متحرّك إلا بقدرته وإرادته، ولا يتكلّم في أكناف الآفاق متكلّم إلا بإلهامه وإفادته، أحمده حمد من اعترف بتقصير فهمه وضعف عقله فهداه برحمته وتوفيقه إلى تحصيل بعض الفنون، وأشكره شكر من كان يخبط في ظلام الجهل فأخرجه برأفته وتأييده إلى فضاء الرشد ونور التمييز حتى عرف الحق اليقين من أباطيل الظنون، ثم أتوسل إليه سبحانه وتعالى بأنبيائه المرسلين وأوليائه المقربين (..). وأسأله عزّ وجلّ أن يجعلني من عباده المهتدين الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين (..) أما بعد[1] لما فضل الله جنس الإنسان على سائر المبدعات بفوائد الفهم والإفهام، واختص بني آدم من بين أصناف الحيوانات بكرامة الكلام، بعث في كل أمة من الأمم من يكون في تمهيد قواعد البلاغة واستنباط أحكام شريعتها معروفًا مشهورًا؛ ويصير لسالكي طريقة الفصاحة إماما ودستورا فممن اشتهر بذلك بين الأنام وصار المشار إليه في هذا الباب عند أهل الإسلام مؤلف كتاب المقامات المشهور بالحريري،

(1) كذا بالأصل، وهذا مما استدركه عليه الشيخ ناصيف اليازجي في الرسالة التي ألفها في أخطاء "دوساسي" في شرح المقامات الحريرية حيث بيّن أن الكلام الذي يأتي بعد "أما بعد" لابد أن يرتبط بالسابق بالفاء، وسيجري الحديث عن هذه الرسالة وعن استدراكات اليازجي في الصفحات الموالية.

وهو الشيخ الإمام أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان البصري الذي أزرى من كان قبله من الأدباء والفصحاء، وأتعب من جاء بعده من الظرفاء والبلغاء، فإني لما رأيت أن كتابه المذكور لم يزل مذ ألفه إلى يومنا هذا لعلم الأدب كالعلَم المنشور يحسبه الخاصة والعامة واسطة عقده وخلاصة نقده، ويعتقدونه سناء مصباحه وضياء صباحه (...) أحببت أن أشرحه شرحًا متوسطًا بين الإيجاز والتطويل، وأكشف الغطاء عن مشكلاته ومجملاته بالتفسير والتفصيل وقد شرح المقامات الحريرية من علماء المشرق والمغرب كثير ذكرهم حاجي خليفة في كتابه المسمى كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (...)، ومنها شرح آخر تأليف الشيخ شمس الدين أبي بكر محمد بن أبي بكر الرازي صاحب (..) كتاب مختار الصحاح المتوفى بعد سنة ستين وست مائة، وهذا الشرح لم يذكره الحاج خليفة، وهو شرح لطيف يشهد لصاحبه بكمال الأدب؛ إلا أن النسخة التي هي في ملكي نسخة ناقصة سقط منها نحو نصف الكتاب (..)، وقد اجتمع عندي أيضًا من شروح المقامات نسخ ست بلا شرح غير أن أكثرها يوجد فيه من التعليقات والحواشي ما ينتفع به القارئ، وقد اخترت من تلك الشروح كل ما يحتاج إليه طالب العلم في تحصيل المقصود (..) ثم أضفت إلى ذلك شيئًا كثيرًا نقلته من كتب أئمة النحو واللغة ومن مجمع الأمثال للعلامة الميداني، وكتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، ثم من ديوان البحتري وديوان

المتنبي وشرح المعلقات للزوزني (..)، كل ذلك ليتيسر على من أعجبه الغوص في بحار اللغة العربية أن يظفر من دررها بكل يتيمة عقيلة[1] (..)، وإنما المرجو ممن نظر في هذا الشرح المختار أن لا يؤاخذني على ما ظهر فيه من العثرات؛ بل أن يستر بذيل كرمه ما استبان له من العورات. والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب لمن تصفحه من أهل المشرق والمغرب نافعًا مفيدًا ..." [2]

ويتجلى للناظر بوضوح مستوى الكتابة العربية عند دو ساسي في ميلها إلى بعض المحسنات البلاغية مع تضمين شيء من معاني القرآن والتعابير المشهورة حتى تكون مناسبة لسمت المقامات الحريرية، ولا تترك أي شك لدى القارئ في تمكّن المستعرب الذي حررها من اللغة العربية تمكنًا لا يختلف في شيء عن المتضلعين فيها من أبنائها، وهذا هو الانطباع الأول الذي يحصل للمتأمل في الخطبة التي صدّر بها شرح المقامات. لكن إمعان النظر فيها يخبر عن كاتب حصل معرفته باللغة من واقع الاطلاع العميق على المصادر وإدمان النظر في الكتب وحفظ ما فيها أكثر مما حصلها بالمحادثة والاستعمال اليومي؛ فهي لغة كتابية وليست لغة شفاهية. وبقطع النظر عن تصريح "دو ساسي" بهذا الأمر وأسفه لعدم قدرته على التخاطب باللغة

(1) كذا بالأصل.

(2) Les séances de Hariri Publie en arabe, avec un commentaire choisi, par M le baron Silvestre De Sacy; pp 1-5 .

العربية على نحو يرتضيه، فإن مجال استعماله للعربية الفصيحة كان محدوداً جداً يقتصر على بعض ما حققه من نصوص في حين كانت كل أبحاثه باللغة الفرنسية فضلاً عما نقله من لغته الأصلية إلى الفرنسية.

وقد أشار "دو ساسي" في المقدمة الفرنسية إلى أنه أعلن عن نيته في تقديم شرح كامل للمقامات الحريرية منذ سنة 1811، ثم حصل على الموافقة السامية من المطبعة الحكومية في 1813، ولكن الظروف حالت دون إتمام المشروع. استأنف العمل في 1815 وأنجز قسماً كبيراً منه، ثم اكتشف مجموعة من النسخ المخطوطة للمقامات، عزّز بها منجزه ودفع به للنشر في 1820[1]. وفي تلك الأثناء ظهرت المقامات الحريرية مطبوعة في نشرات مختلفة، منها طبعة "كلكتا" التي تضمنت شرحاً لها باللغتين العربية والفارسية، وكان ذلك في سنوات 1809 و1812 و1814، وطبعة أخرى للمقامات الحريرية محققة صدرت في باريس في 1818. ولم يكن ظهور كل هذه الطبعات في أثناء الاشتغال على التحقيق والشرح مثبطاً له فقد اتخذ من دعم مجموعة كبيرة من تلاميذه ومن أصدقائه من المستشرقين حافزاً للمضي قدماً في عمله وإن كان أهمله بعض الوقت مولياً وجهته شطر نصوص من شعر الحماسة.

(1) السابق، انظر المقدمة باللغة الفرنسية، ص 3.

ولم يخف "دو ساسي" في هذه المقدمة تفضيله مقامات الهمذاني التي خصها بمقتطفات في كتابه "منتخبات من النصوص العربية" وبيّن أنه يجدها أكثر رشاقة في العبارة وتنوعًا في الأساليب والمحتوى وأكثر إمتاعًا للقارئ، وأن مقامات الحريري تبدو في جلّ نصوصها استعراضًا لغويًا وبلاغيًا لا طائل من ورائه.[1] وبيّن أن المعرفة الدقيقة بلغة المقامات التي تقوم على تضمين الكثير من الأمثال العربية، أساسية بالنسبة إلى من يتصدى لترجمتها مقرّا بصعوبة ذلك مستطردًا إلى الحديث عن نقلها إلى العبرية من قبل "يهوذا بن شلمون بن الحريزي" (ت 622هـ)، ثم محاكاتها بنص يشبهها، قص فيه رحلاته وجاء بها في أسلوب شبيه بالمقامة وطبعت في القسطنطينية في 1540 و1578 و1583. وقد ضمّن "دو ساسي" شرحه للمقامات الحريرية مقتطفًا من الترجمة العبرية هو المقامة الثالثة وأتبعها بتعليقات.[2]

ناقش "دو ساسي" مسألة ترجمة المقامات الحريرية إلى الفرنسية موضحًا أنها لم تكن غايته نظرًا لصعوبة النص وافتقاره إلى المحتوى الذي يحتفظ بألقه وبريقه حين ينقل إلى لغة أخرى حيث إن قسمًا مهمًا من نصوص المقامات لا يزيد على مجموعة من الألغاز والحيل اللغوية التي قد لا يجد فيها القارئ الأوروبي أي فائدة[3].

---

(1) نفسه، ص 5 .

(2) السابق، ص 6 .

(3) نفسه، ص 9 .

اعتمد "دو ساسي" نسخًا مخطوطة من شرح "الشريشي"، وعمل على مقارنتها بالنسخ التي وصلته وخاصة النسخة التي خصه بها "ريتشارد هوجتن" M.Richard Haughton، وهي مخطوطة تعود إلى سنة 598 هـ "فيها الكثير من الملاحظات القيمة على الحواشي وبين السطور وبهذا تكون هذه النسخة أقدم من شرح "الشريشي" المتوفى سنة 619 هـ" [1].

أفاد "دو ساسي" من الشروح السابقة للمقامات وميّز بينها منوهًا بالطابع الموسوعي لعمل "الشريشي" ويتجلى من تعليقاته على النسخ التي تعامل معها أن غايته كانت العثور على مادة لغوية ضافية تبيّن أسرار اللغة الأدبية، وأن همته كانت متعلقة بتقديم نصوص نموذجية صالحة لمتعلمي العربية من غير الناطقين بها ترتقي بهم إلى الإتقان والتمكّن المطلوبين، وهذا المطلب لا يختلف كثيرًا عن مطلب مدرسة الاستشراق التي ينتمي إليها سابقوه؛ فلم تكن لها الرؤية التي بها تتجاوز الدراسة التاريخية للنص انطلاقًا من الشروح اللغوية وصرامة التحقيق، ترمي من ورائه إلى فهم تطور اللغة في الاستعمال الأدبي وتعبيرها عن الجوانب الحضارية والجغرافية وغيرها وهو في صميم التوجه الفيلولوجي في البحث .

وقد صرح في خاتمة المقدمة بأنه لا يعدّ عمله مكتملاً ولكنه يراه لبنة مهمة في بناء التخصص العميق بالنسبة إلى دارس

(1) نفسه، ص 7.

اللغة العربية وعملاً مهمًا في سياق تقريب النصوص العربية المتينة من عدد متزايد من المهتمين والمستشرقين الجدد الذين يحدوهم شغف لاكتشاف المشرق وآدابه[1] مما يبيّن بوضوح أن الغاية من عمله، هي خدمة الأهداف التعليمية، وأن نظرته إلى مقامات الحريري تتلخص في كونها نصًا فائق الأسلوب قيمته الوحيدة تكمن في لغته التي تتوفر على أمثلة تطبيقية لمختلف أبواب النحو والبلاغة. وحريّ بنا أن نشير هنا إلى أن هذه النظرة لم تختلف عن موقف الشيخ المصلح "محمد عبده" من مقامات الهمذاني التي أخرجها في شرح مستفيض وحذف منها بعض المقاطع والنصوص، تمهيدًا لتهيئتها للطالب المقبل على تعلّم أصول الإنشاء العربي البليغ[2]. فهل يمكن القول تبعًا لهذا إن الموقف من المقامة لم يختلف فيه المستشرقون عن أهل العربية وعلمائها على الرغم من اختلاف الثقافة والتنشئة الفكرية؟ إن الإجماع على القيمة الأدبية واللغوية للمقامات لم يتبعه بحث في تأصيل الجنس الأدبي داخل البلاغات النثرية القديمة واستشفاف الجماليــة الخاصة بها، فلئن كان جيل المستشرقين من أمثال "دو ساسي" لا إربة لهم في الدراسة الأدبية للنصوص العربية، ويكتفون بالبحث الفيلولوجي الصرف تعزيزًا للتضلّع في اللغة

(1) السابق، ص 10 .

(2) كاظم، نادر، المقامات والتلقي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003، صص 138-139 .

الحية، فإن جيل المصلحين والمتأدبين من حملة لواء النهضة العربية كانوا قمناء بأن ينهضوا بهذه الوظيفة، لكن ضعف عدّتهم المنهجية والنقدية قعد بهم عن إدراك ذلك والاهتداء إلى المسالك الصحيحة للتعامل مع نصوص التراث الأدبي.

يجري "دو ساسي" في شرح مقامات الحريري على نهج واضح يقوم على تفسير المعنى اللغوي وتحليل المراد من التعبير فينتج ما يمكن أن نسميه: دراسة لغوية للنص تشبه الشرح المدرسي الذي يعتمد مسارًا خطيًا متسلسلاً، ويعيد إنتاج ما في النص المصدر بلغة وأسلوب آخر؛ فهو كلام على كلام يحل المسجوع في منثور، ويُفَصِّلُ المجمل في تعبير الحريري، والنتيجة هي عملية تضخيم للنص الأصلي ومحاكاة له في لغة بديلة تشرّح الأصل وتفكك مكوناته اللغوية وتبسطها وتستدعي الشواهد المشابهة له. ويمكن أن نذكر مثالاً على ذلك من المقامة الرابعة، وهي الدمياطية، وفيها يقول في شرح قول الحريري: "أخبر الحارث بن همام قال: ظعنت إلى دمياط عام هياط ومياط وأنا يومئذ مرموق الرخاء مموق الإخاء، أشحب مطارف الثراء وأجتلي معارف السراء، فرافقت صحبًا قد شقوا عصا الشقاق وارتضعوا أفاويق الوفاق ..". يقول دو ساسي معلّقا: "عام هياط ومياط أي عام اضطراب ومجيء وذهاب، قال الفراء: الهياط السوق في الورد، والمياط السوق في الصدر. وقال اللحياني: الهياط الإقبال، والمياط الإدبار. وفي كتاب العين الهياط والمياط

من قولهم مازال بينهم الهياط والمياط ومازال يهيط مرة ويميط أخرى (..) مرموق الرخاء، المرموق الذي يرمق إليه أي ينظر والرخاء سعة الخير ..."[1].

استدراك الشيخ "ناصيف اليازجي" على شرح "دو ساسي":

تتبع الشيخ "ناصيف اليازجي" (1800– 1871) في رسالة له بعنوان "رسالة الشيخ ناصيف اليازجي البيروتي إلى البارون سيلوستري دو ساسي المرحوم في تدارك ما فرط منه في رواية متن المقامات الحريرية وتحرير شرحها"[2] أخطاء وقع فيها "دو ساسي" وذكرها بحسب مواضعها المختلفة مبتدئًا بالمقدمة، مفصلاً القول في السقطات النحوية والأخطاء في التأويل والفهم، مصححًا

---

(1) Les séances de Hariri publie en arabe, avec un commentaire choisi, par M le baron Silvestre De Sacy ; pp32-33 .

(2) طبعت في " ليبسيك " مع ترجمتها إلى اللاتينية، 1848 .
https://ebook.univeyes.com/30852/pdf-%D8%B1%D8%B3%D8%A7%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%8A%D8%AE-%D9%86%D8%A7%D8%B5%D9%8A%D9%81-%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A7%D8%B2%D8%AC%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%B1%D9%88%D8%AA%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%B1%D9%88%D9%86-%D8%B3%D9%84%D9%88%D8%B3%D8%AA%D8%B1%D9%8A-%D8%AF%D8%B3%D8%A7%D8%B3%D9%8A

بعضها بالاستناد إلى المصادر والشواهد المختلفة حينًا والاستناد إلى مؤلفات الحريري حينًا آخر.

وقد ذكر "اليـــازجي" فـــي فاتحة رسالته أنه ألفها بطلب من بعض المستشرقين نافيًا أن يكون قاصدًا إلى استنقاص عمل "دو ساسي" أو أن تكون الكتابة بمبادرة منه(1). ويتجلى للناظر أن عمل "اليازجي" كان لغويًا صرفًا اقتصر على اجتزاء الموضع الذي لاحظ فيه مخالفة للأصول في إجراء اللغة العربية، وعلّق عليه مصححًا ومصوّبًا مذكرًا بالقاعدة النحوية، كما انتبه إلى بعض التجاوز في تحقيق الأبيات الشعرية مكتشفًا الخلل في عروضها الذي يصل في بعض الأمثلة إلى قلب البيت الشعري بشكل تام بحيث يحلّ الصدر محل العجز(2). وقد مرّ على المقامات مقامة مقامة، ولم يغفل أي مظهر مهما بدا بسيطًا، وهذا ليس بغريب على عالم باللغة وغريبها، ومرجع في عصره في الفتاوى اللغوية والمحاضرات العلمية، فهو في بعض المواضع يؤاخذ "دو ساسي" لمجرّد أنه لم يتسع في شرح مثل أو تأويل عبارة

---

(1) السابق، ص 4، انظر قوله: "قد تطفلت به عليك وبي ما بي من المهابة إذ لم تكن ممن يقابل بمثل هذا ولم أكن ممن يختاره لولا سؤال من تحق له الإجابة من رجالكم الكرام وبناء على ذلك أقول.. " .

(2) السابق، انظر ص 22 تعليقه على المقامة المعرية: "ومن يلق ما لاقيت لابد يأرق أرقت فلم تخدع بعيني نعسة وضعتم كل واحد من شطريه موضع الآخر والصواب أن يكون صدره أرقت وعجزه ومن يلق ما لاقيت إلى آخرهما.. ".

مثلية بما يقتضيه المقام من التحليل والإسهاب، ومن ذلك مثلاً تعليقه على شرح" المقامة الإسكندرية"؛ حيث يرى أن المستشرق لم يول المثل المعروف عن ندامة الكسعي ما يستحقه من التفصيل ولم يذكر القصة كاملة، فيخاطبه بلهجة اللائم على التقصير بقوله: "وفيها أن الكسعي رجل من كسع واسمه محارب قيسي. والصواب: رجل من كسعة اسمه محارب بن قيس وحديثه ذو شجون لم تذكروا منه إلا قليلاً في هذا المطوّل فلعله لم يبلغكم تمامه أو أغفلتموه كما أغفلتم حديث المعيدي من قبح منظره وحسن صوته حتى كان يمدّ له ستر إذا غنى عند الرؤساء لئلا ينغّص منظره لذّة غنائه، فعدلتم عن هذا، وهو الأولى، إلى ذكر نسبه وما يتعلّق باسمه وهو غير مطلوب لأن المثل مبني على ذاك دون هذا، وكما أشرتم إلى حديث قصير مع الزبّاء تلميحًا لاعتمادكم على شهرة القصة، وهي غير مشهورة عند من يحتاج مثلاً إلى شرح قصة رفيق الرجل الذي قال له: أتحملني أم أحملك ونظائرها مما تشرحونه وإن كانت قد تداولته ألسنة العامة، ولو أجريتم الكتاب على نمط واحد لقلتم في حديث الكسعي كما قال الإمام برهان الدين: إنه كان يرعى إبلاً بواد معشب فبينما هو كذلك إذ بصر بنبعة في صخرة فأعجبته، فقال: ينبغي أن تكون هذه قوسًا فجعل يتعهّدها حتى إذا أدركت قطعها فجففها ثم اتخذ منها قوسًا فقال: يا رب وفقني لنحت قوسي / فإنها من لذتي لنفسي.

(...) ثم دهنها وخطمها بوتر، ثم عمد إلى ما كان من

بُرايتها فجعل منه خمسة أسهم وأخذ يقلّبها في كفّه ويقول: هن وربي أسهم حسان / تلذّ للرامي بها البنان (..) ثم خرج حتى أتى على موارد حُمُرٍ وكمن بها فمرّ قطيع فرمى عيرًا منه فأصماه السهم وجازه إلى الصخر فأورى نارًا فظن أنه أخطأ (..) ثم عمد إلى قوسه فكسرها وبات فلما أصبح نظر فإذا الحمر مطرّحة حوله وأسهمه مضرّجة بالدم فندم على كسر القوس فشدّ على إبهامه فقطعها، وقال: ندمت ندامة لو أن نفسي / تطاوعني إذن لقطعت خمسي (...) انتهى. وكذا لو قلتم في قصة الزبّاء ما قاله دغفل بن حنظلة الشيباني ..." [1] .

ويتبين من هذا الشاهد المطوّل أن اليازجي لا يكتفي برصد الخطأ بل يوجه "دو ساسي" إلى ما يجب أن يكون عليه شرحه فيتّخذ من الموضع المراد تعلة لاستعراض مادة أدبية ولغوية مطولة تبرز مدى معرفته وسعة حفظه، ولاسيما إذا كانت مادة منقولة، وفي هذا ما يتجاوز مجرد الرصد الأمين للفجوات في متن الشرح إلى ما نسميه مصادرة حرية الشارح في انتقاء المادة الملائمة لخطابه. ويلمس ذلك في تكرار صيغة "ولو فعلت كذا أو لو قلت كذا"، أو "ولو أجريت الكتاب على"، وهو ما يُذكّر بأسلوب النقاد القدامى لما يتصيدون سقطات الشعراء وزلاتهم ويبدون مساوئهم وأغلاطهم ويتحدثون من منطلق سلطة الحفاظ على اللغة وجودة القول الشعري. ولا مراء في أن تصويب اليازجي

(1) السابق، صص 26 – 30 .

لاسم الكسعي وانتمائه القبلي ملحوظة وجيهة ولفتة رشيقة نستشف منها أن قسمًا من أخطاء "دو ساسي" في شرح بعض المواد من مقامات الحريري عائد إلى ما يشبه التصحيف والتسرّع في النقل فقوله: من كسع بدل كسعة، وقوله: محارب قيسي بدل محارب ابن قيس دليل على أن مهارته في التحقيق خانته لأن الاختلاف بين الصواب والخطأ لا يزيد على حرف أو حرفين.

وملخص القول : إن نظر اليازجي في شرح "دو ساسي" أفضى إلى الكشف عن أخطاء في فهم النص الأصلي وتفسيره لغويًا، وأخطاء في إعرابه وضبطه نحويًا، وخلل في وزن الأشعار التي تضمنتها المقامات ما تسبب في كسرها عروضيًا، فضلاً عن عدوله في شرح المعميات والعبارات المشهورة والأمثال عن أصولها المعروفة إلى مادة أقل قيمة ومناسبة. ومن لطيف استدراكاته تنبيه في شرح "المقامة الساوية" ورد فيه بيت للشاعر أبي العتاهية جاء فيه: "وكانت لي حياتك في عظات / وأنت اليوم أوعظ منك حيا، والأصل: وكانت في حياتك لي عظات / وأنت اليوم إلخ. وفيها المآدب مفسرة بالمطاعم مطلقًا، وهي عندهم على وجه مخصوص؛ فإن كانت للنفساء فهي الخرس، أو للطفل فالعقيقة، أو للختان فالإعذار، أو للأدب فالحذاق، أو للخطبة فالإملاك، أو للعرس فالوليمة..."[(1)]، وفيه تتكشّف رغبة اليازجي في الظهور على المستشرق في استدراكه على اقتضابه في الشرح باستفاضة في

(1) نفسه، ص 38 .

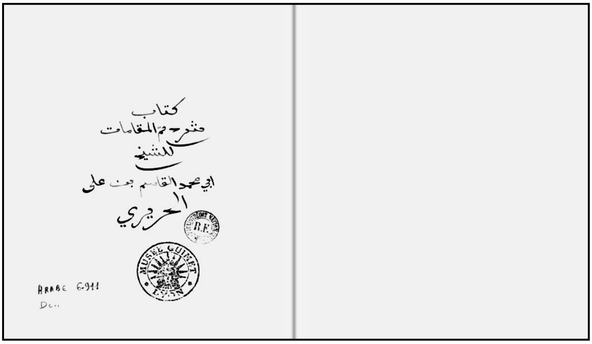
استعراض المعجم الخاص بالمآدب وأنواعها في اللغة العربية، وهو نهج يبدو أنه اعتاده في كل المواضع التي صوّبها، لكن ما يلفت الانتباه في تعليقه حقًا هو تصويب الكسر في بيت أبي العتاهية، حيث يتعجب القارئ من مستعرب ألف كتابًا في عروض الشعر وأوزانه يخطئ في بيت معروف للشاعر أبي العتاهية فإن كانت الذاكرة قد خانته فلعل معرفته بالبحور وأوزانها تسعفه .

وختم "اليازجي" استدراكاته على أخطاء "دو ساسي" بالاعتراف بجهد المستشرق مثمّنًا عمله مشيراً إلى أن كل جهد بشري مهما كان لابد أن يداخله الخلل ويعتريه النقصان: " قال كاتبه الفقير ناصيف اليازجي: هذا مما علقناه مما أنكرناه في كتابكم ولم نستقص في تعقّبه استقراءً من حرف إلى حركة يتمهّد العذر عنهما، ولم نكرّر ما سبق ذكر مثله طلبًا للاختصار، هذا وإني أستوهبكم هذه الجسارة التي لست كفؤًا لها وألتمس منكم الإفادة فيما لم أدركه والتسليم فيما لم تنتبهوا إليه وأعيذكم من أن تقولوا هكذا وجدنا في ما نقلنا عنه فيكون لكم مقام ناسخ لا علم له بعمله، وليس هذا من شأنكم أعزه الله وإني لأشهد بفضلكم ولا فضل لي إذا شهدت للصبح بالشروق وللمسك بالعبوق، وحبذا لو أن لنا أمثالاً لكم نشدّ أزرنا بها ونفتخر بآدابها ولكنكم بحول الله على حق الإنسانية ولا عصمة فيها والحمد لله أولاً وآخرًا "[1].

(1) نفسه، ص 78 .

لقد أكثر اليازجي في مخاطبته للمستشرق من عبارات من قبيل "أغفلتم" و"توهمتم"، لكنه لم ينكر فضله وحاول في الآخر تلطيف عبارته التي لم تخل من تعريض به ولاسيما إشارته إلى "مقام الناسخ" تلميحًا إلى ما في شرحه من مواضع التصحيف مجرّدًا اجتهاده في الشرح من كل قيمة ونازعًا عنه كل إضافة معرفية، ذلك أن الشأن في وظيفة النساخ أن يعيدوا نسخ الكتاب كما هو محاولين الوفاء لمتنه الأصلي ما استطاعوا، لكن عملهم لا يخلو في الغالب من شبهات الخطأ في النقل أو التحريف، فهم مذمومون حيثما حلوا. وتفهم هذه الإشارة هنا على معنى بالغ التجريح لأن القصد منها مدح بما يشبه الذمّ، فهو ينزّه عمل "دو ساسي" من أن يشبه عمل النساخ، ولكنه- في الوقت ذاته- يضعه في مستوى دون مستوى المؤلف أو المحقق المتمكّن من أدوات عمله.

لقد مثل نظر اليازجي في شرح المقامات لـ "دو ساسي" مقارعة للكفاءة في اللغة العربية بكفاءة مثلها فلئن كان المستشرق الفرنسي رئيسًا لأرباب الصناعة في مجاله مدرّبًا للكثيرين على فهم النصوص وفك شفرة الخط العربي، فإن المستدرك على شرحه حبرٌ من أحبار قومه في دقة المعرفة باللغة فضلاً عن كونه كاتب مقامات تعدّ من أشهر المقامات الحديثة، وهي "مجمع البحرين"، فكأن تقييمه لعمل المستشرق ترجمة لما في الوجدان العربي من خواطر حول منجز المستشرقين ونظرتهم إلى الأدب العربي وطريقتهم في معالجة قضاياه.


كتاب
شرح م المقامات
للشيخ
ابي محمد القاسم بن علي
الحريري

ARABE 6911

(صورة لصفحة العنوان من النسخة المخطوطة لكتاب المقامات الحريرية بخط "سيلفستر دو ساسي" منقولة عن موقع Gallica التابع لدار الكتب الوطنية الفرنسية، ويلاحظ هنا أن العنوان هو "كتاب شرح كم ّ المقامات للشيخ أبي محمد القاسم بن علي الحريري")

Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France. Département des Manuscrits- Arabe 6911) « Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France » /« Source gallica.bnf.fr / BnF »


شرح الخطبة

(صــورة الصفحة الأولى وفيها خطبة الكتاب، وقد تمت مقارنتها مع مقاطع وردت في النسخة المنشورة في 1822 وتبين التطابق بين النسختين)

2- كليلة ودمنة أو حكايا بيدبا:

صدر هذا الكتاب في طبعة للمطبعة الملكية سنة 1816 شاملاً لأمثال كليلة ودمنة في تحقيق ومقدمة حول تاريخها متبوعة بشرح لمعلقة "لبيد" وترجمة إلى الفرنسية(1). صُدِّر الكتاب بإهداء مطول ضمّن فيه "دو ساسي" صادق مشاعر الإخلاص والولاء للملك، وأتبعه بمقدمة أو "تنبيه" ذكر فيه أهمية "كليلة ودمنة" في معرفة الأمثال العربية وعلاقتها بالحكمة الشرقية.

وقد أعرب شيخ المستشرقين في هذه المقدمة عن اهتمامه الخاص بهذا المصدر القيم من مصادر العربية الذي عدّه، في كثير من الأحيان، مدوّنه مثالية لتدريس العربية. منوهًا بعمل المستشرق الهولندي "ه. أ. شولتنز" على الرغم مما جاء فيه من أخطاء؛ معبّرًا عن ابتهاجه بالاشتغال على نص من النصوص المعالم في الأدب العربي يُعدُّ التعريف بها لدى القارئ الغربي غنمًا كبيرًا. بيد أنه ذكر أن هذا الكتاب مقدم لدارس العربية من التلاميذ المستشرقين خاصة، ولاسيما أنه قد سبق أن تُرجم إلى جل اللغات الأوروبية، فتكون مزيته البحث في قصة النشأة والمراحل التي مر بها حتى وصل إلى الثقافة العربية، وهو ما ذكره بنوع من الاعتزاز لما بذله من جهد في

---

(1) Calila et Dimna ou Fables de Bidpai en arabe précédé d`un mémoire sur l`origine de ce livre et sur les diverses traductions qui en ont été faites dans l`orient, et suivies de la Moallaka De Labid; en Arabe et en Français ; par M Silvestre De Sacy : Paris ; l`imprimerie royale, 1816.
Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France.

الاستقصاء التاريخي وفحص الوثائق وبناء النتائج [1].

لقد اختار "دو ساسي" نصًا قريبًا منه مارسه كثيرًا في تعليم العربية، ولا شك في أن متن هذا الكتاب تشكّل من مسوداته القديمة والجذاذات التي بنى عليها محاضراته. فقد كان ينهج في دروسه نهجًا خاصًا حيث كان يترجم لطلابه من مختاراته العربية "الأنيس المفيد" وبعض أجزاء من القرآن الكريم مع تفسيرات البيضاوي، وكان يدرس أيضا حياة تيمور لابن عربشاه (طبعة مانجيه Manger)، وكتاب فاكهة الخلفاء لابن عربشاه أيضًا، كما كان يدرسهم كذلك معلقة لبيد بشرح الزوزني[2]، ولذلك لم يجد ضيرًا في تذييل كتاب كليلة ودمنة بشرح لمعلقة الشاعر الجاهلي. وعلى الرغم من إشارته المهمة إلى أن ترجمات هذا الكتاب إلى الفرنسية لم تعتمد النسخة العربية وعدلت عنها إلى النسخة الفارسية أو التركية أحيانًا، لم ير "دو ساسي" أية فائدة في نقل النص العربي إلى الفرنسية[3] واكتفى بالتعليق الدقيق على النسخ التي نظر فيها راصدًا الفروق بين الأصل الهندي والنقول الفارسية، ثم النسخة العربية لابن المقفع؛ غير مقتصد في الملاحظات ذات الطابع اللغوي والتاريخي التي يمكن أن تفيد الدارسين من تلاميذه وغيرهم. ويعدّ التعليق النقدي على المواضع الملبسة في النسخ التي تعامل معها "دو ساسي" سواء بالتأويل أو التفسير اللغوي إسهامًا قيّمًا يندرج في صميم اهتمامات

(1) السابق، ص 2 من المقدمة.

(2) المقداد، محمود، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، ص 199.

(3) Calila et Dimna ou Fables de Bidpai en arabe; p 6.

المدرسة الفرنسية للاستشراق من حيث حرصها على صرامة التحقيق التاريخي وفهم جينيالوجيا النص وامتداداته داخل سلالات نصية أخرى.

نفى "دو ساسي" نفيًا قطعيًا أن تكون "كليلة ودمنة" من تأليف عبد الله بن المقفع، مثلما ذهب إليه ابن خلكان، معللاً حكمه بوجود نسخ فارسية منقولة عن الأصل الهندي اعتمدها المؤلف العربي في الترجمة، كما استند على حقيقة أخرى، وهي المسلك الثري الذي فتحته جهود المدرسة الإنجليزية في الاستشراق بكشوفاتها العلمية في مجال الدراسات السنسكريتية.[1] بيّن المستشرق الإنجليزي "م كولبروك" M .Colebrooke التشابه الكبير بين "بنج تنترا" الهندي و"كليلة ودمنة" وذلك في المقدمة التي كتبها لـ "هيتو باديزا"[2]. ومن الملاحظات المفيدة التي توصل إليها المستشرق الفرنسي من فحص العلاقة بين النص العربي والأصول الهندية التي اكتشفها المستشرقون الإنجليز: الارتباط التلازمي بين البابين الأول والثاني على نحو جعلهما نواة أساسية للكتاب لا تغيب في كل النسخ ، في حين تبدو باقي الأبواب مادة مفتوحة للزيادة يمكن أن توسعها مخيلة الناقل أو الناسخ بتضمين حكايا جديدة في المتن الأصلي[3] بحيث تغدو بنية النص الأصلية بيئة مثالية لتوليد الأمثال.

(1) السابق، ص 2 من الفصل الأول.
(2) نفسه، ص 5 .
(3) نفسه، ص 3 .

ولا يخفى ما في هذا التأويل من عمق؛ فهو لا يكتفي بالتلويح بالاختلاف المحتمل في نص كليلة ودمنة أثناء عملية انتقاله بين الثقافات؛ بل يتجاوز ذلك إلى تقديم تفسير لآلية التطوّر فيه بوصفها آلية داخلية وضمنية. وفي هذا السياق يشير إلى ستة فصول أضيفت إلى كليلة ودمنة بعد الترجمة الفارسية، وهو ما أقر به المترجم أبو المعالي نصر الله في عهد السلطان الغزنوي بهرام شاه. ويقارن "دو ساسي" بين نسخ من كليلة ودمنة اعتمدت الأصل الهندي مستعرضًا الأبواب التي تضمنتها، وهو ما لاحظه في ترجمة ابن المقفع، مشيراً إلى نسخة أخرى في برلين أضافت أبوابًا كثيرة، منها باب عن "بزرجمهر ابن بختيان" لينتهي في آخر المقارنة إلى تأكيد التأثير الفارسي فيها والمتمثل في إضافة الكثير من المتون الحكائية الفارسية حيث إن الفرس لم يكتفوا بترجمة النص الهندي؛ بل عملوا على تطعيمه بمواد خاصة بثقافتهم في محاولة منهم لتوطينه وتثبيته في بيئتهم. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الكثير من هذه الملاحظات نستشفها ضمنيًا بين السطور دون أن يعبّر عنها في النص بشكل صريح ومباشر؛ فكاتب المقدمة متعلّق بالتفاصيل الدقيقة بين النسخ ومقارنة المتون دون أن يسهب في الاستنتاجات والآراء الجازمة تاركًا المجال مفتوحًا للقارئ يتأول المعطيات كيفما شاء. وقد عمل "دو ساسي" على رصد العلامات والرموز التي تحيل على الهوية الهندية للقصص من حيث نوع الحيوانات التي تستعمل أقنعة تمثيلية أو أسماء بعض الأعلام وغيرها ما يشي بالحرص على تأصيل الأثر داخل البيئة الشرقية عمومًا. ومن الإشارات المهمة في المقدمة التي

كتبها "دو ساسي" بالفرنسية إشارته إلى الفرق الشاسع بين النسخة الفارسية من كليلة ودمنة المكتوبة بالفهلوية والنسخة العربية التي قدمها ابن المقفع للقارئ العربي ما يلقي بظلال من الشك على عملية الترجمة وما داخلها من إضافات وتحريف، كما رجح وجود نسخ عربية كثيرة نقلت عن الأصل الفارسي(1) طارحًا احتمال أن تكون هناك ترجمة واحدة بالفعل، وهي ترجمة أنجزها ابن المقفع لكن أيدي الناسخين تدخلت فيها بالزيادة والتوسيع في متن بعض القصص وتوشيتها بالأمثال العربية والتعابير القرآنية ما جعلها بالصورة التي تبدو فيها بعيدة عن المصدر المنقول عنه.(2) وقد توصل "دو ساسي" إلى هذه النتائج من واقع الفحص المتأني لسبع نسخ مخطوطة من كليلة ودمنة رأى أن أكثرها إيجازًا وبعدًا عن الإحالات على الثقافة العربية الإسلامية في لغتها ومضامينها هي الأقرب إلى أن تكون ترجمة أصيلة، فتعطي فكرة حقيقية عمّا أنجزه ابن المقفع(3).

لم يكتف "دو ساسي" بالمقارنة بين النسخ المخطوطة حيث اشتغل على ترجمات كليلة ودمنة إلى غير العربية، كالترجمة العبرية والترجمة الإسبانية، نافيًا أن يكون "سهل بن هارون" قد أنجز ترجمة غير ترجمة ابن المقفع على زمن الخليفة العباسي المأمون.(4) كما كشفت الدراسة المتأنية للنسخ الفهلوية بعض التفاصيل المتعلقة

(1) نفسه، ص 14 .
(2) نفسه وكذلك الصفحة .
(3) نفسه، ص 15 .
(4) نفسه، ص 30 .

بديانة "برزويه" المتطبب ممّا جعل شيخ المستشرقين يستند إلى غياب الإحالات على عقيدة الزرادشتية ليستنتج احتمال كونه مسيحيًا.

يتسع شيخ المستشرقين الفرنسيين في تحليل بعض الجوانب التي تتوفر على بعد فيلولوجي فيحلل أسماء الأعلام وغيرها، ويبيّن تحولها عبر الترجمات مستطرداً بملاحظات مفيدة حول طبيعة اللغات ودلالاتها على ثقافة المجتمع، مؤكداً التلازم بين الموسوعية والنهج الفيلولوجي.

يتجلى ذلك بشكل جزئي في تعليقاته الكثيرة على ترجمة فارسية لكليلة ودمنة، اعتمدت كتاب ابن المقفع، وهي الترجمة التي سبق أن أشرنا إليها في بداية هذا المبحث. إن رغبة "دو ساسي" في استقصاء كل النسخ من كليلة ودمنة في مختلف المسارات، ما كان منها توطينًا للأصل الهندي في الثقافة الفارسية أو العربية، أو ما كان منها عوداً على بدء أي نقل النص العربي المترجم عن أصل فارسي إلى الفارسية من جديد، يدلّ بوضوح على أن الغاية من الدراسة هي تقديم تصوّر علمي ودقيق يستند إلى الشواهد والنصوص عن تطوّر النواة الأولى لكليلة ودمنة إلى مجموعة كبرى من النصوص المتشابهة والمتداخلة في نوع من التناص الكثيف.

وفي سياق تعليقه على ما أنجزه أبو المعالي نصر الله في القرن السادس للهجرة، يعبّر "دو ساسي" عن التفاوت بين طموح المشروع والمنجز الفعلي؛ فقد بدا ما كتبه ابن المقفع بالنسبة للذائقة الفارسية في ذلك العصر بسيطًا جداً، ولذلك جعل هذا المترجم وُكده

التصرف في اللغة وتنميق النص ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فكانت النتيجة منتجًا ضعيفًا.[1] ولا يقف الجهد الاستقصائي عند هذه الملاحظات حيث يكشف "دو ساسي" عن نسخة أخرى نقلت كتاب ابن المقفع إلى الفارسية، وهي نسخة ظهرت بعد أربعة قرون من ظهور ترجمة أبي المعالي نصر الله، وقد عمل عليها "حسين بن علي فايز"، وهو بدوره الكاتب الذي ألف بالفارسية تفسيرًا للقرآن. وقد اهتم "دو ساسي" بترجمة جزء من مقدمة كليلة ودمنة التي أخرجها "حسين فايز" معلقًا على رغبته في تبسيط نص سلفه أبي المعالي ليستنتج أنه حوّر فيه كثيرًا، ويشير إلى نفور الطبع الأوروبي الجاد مما في الأسلوب الفارسي من تصنُّع في العبارة ومبالغة في تطلّب المحسنات البلاغية[2]. ويقوده تأمل هذه النسخة من نسخ الترجمات الفارسية عن العربية إلى ملاحظات أخرى من أهمها: حذف الأبواب التي يمكن أن نعدّها تقديمية أو تمهيدية، مثل باب "برزويه"، وباب عرض الكتاب وهي أبواب أثبتها ابن المقفع، بل ربما يكون هو من ألفها. ويلتفت بعد ذلك إلى ترجمة أخرى، هي ترجمة أبي الإفضال بن مبارك ويقارن بينها وبين الترجمتين السابقتين مستنتجًا الفروق في الأسلوب ومحتوى النص.

وينتقل بعد هذا إلى فحص الترجمات التركية "هومايون نامه" متبعًا النهج نفسه في الاستقصاء والتدقيق والتحقيق ورصد

(1) نفسه، ص 41 .

(2) نفسه، ص 43 .

الاختلافات، ثم يستعرض الترجمات في اللغات المختلفة، ومنها ينتقل إلى إدراج مقتطف من دراسة المستشرق الإنجليزي للأصل السنسكريتي المعروف بـ Hitopadesa، ومن ثم يستعرض النسخ العربية التي عاد إليها في هذا البحث ويتبعها بتحليل لمثل من أمثال كليلة ودمنة وهو المثل المتعلق بملك الجرذان.

يمكن القول إجمالاً بأن جهد "دو ساسي" في الإلمام بقصة كليلة ودمنة وهجرتها بين الثقافات والآداب وما اشتمل عليه بحثه من ملاحظات دقيقة وثقت للتفاعل بين ثيمات قصصية متنوعة في علاقتها بمتضمنات الحكمة الشرقية، هو صدى للأنساق الفكرية التي كانت تتحفز للانطلاق داخل البيئة الفرنسية حيث بدأت اللبنات الأولى للمنهج التاريخي بالتخلّق والتنامي لتستقيم نظرية مكتملة، وحيث الدور المحوري الذي نهضت به مدرسة الاستشراق في تأكيد سيادة التحقيق التاريخي وتربعه على عرش الدراسات الأدبية واللغوية. يمكن القول إذن: إن الكشوفات التي تحققت لبعض المستشرقين الفرنسيين مثّلت حاضنة مثالية لجيل من النقاد والمنظرين في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الذين تبلورت أسس المنهج التاريخي في مؤلفاتهم النظرية ومحاولاتهم النقدية.

وضع "دوساسي" للقسم العربي من هذا السفر الذي يشتمل على ثالوث نصي مهم، هو المقدمة النقدية في تاريخ نشأة كليلة ودمنة، وترجمة معلقة لبيد مع الشرح، ثم النص العربي لحكايا بيدبا

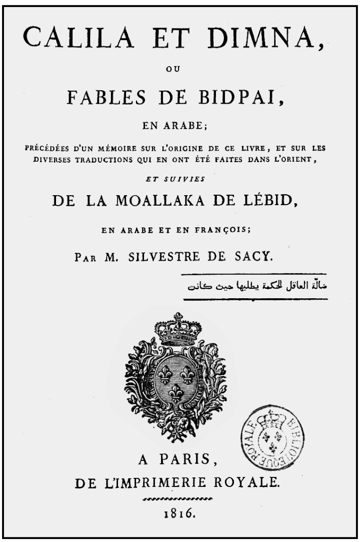
الفيلسوف، مقدمة مؤلفة على شاكلة "خطبة الكتاب" في أسلوب لا يقل قيمة وأهمية عن الخطبة التي وضعها لمقامات الحريري وفيها يقول: "بسم الله المبدئ المعيد، بعد حمد الله الحنان المنان ذي الجلال والفضل والإحسان الذي كان قبل المكان والزمان ثم أبدع المكان فقال له كن فكان (..)، فهذا ما يقول العبد الضعيف سيلوستري دو ساسي الفقير إلى رحمة ربه المنعم المواسي، إن كتاب كليلة ودمنة مع ما له من الاشتهار التام والاعتبار العام عند سكان الممالك الشرقية وقطّان البلاد الغربية حتى انتقل إلى جميع الأطراف والأقطار في ما مضى من الدهور والأعصار فإنه إلى زماننا هذا لم تطبع الترجمة العربية التي ترجمها عبد الله بن المقفع الكاتب المشهور في أيام أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور .."

لقد قدّم "دو ساسي" حكايا بيديا، أو أمثال كليلة ودمنة، في تحقيق قيّم لم يقتصر على إخراج نص من عيون النصوص في النثر العربي القديم؛ بل أردفه بدراسة ضافية عن أصل الكتاب وتحولاته مستندًا إلى أدلة وشواهد دقيقة استثمر فيها معرفته باللغات الشرقية ونزعته الموسوعية وإمكانات التحليل الفيلولوجي ممّا يقودنا إلى القول بأن غايته تجاوزت غاية المحقق أو المترجم لتحقق كشفًا علميًا ينبه المتلقي العارف إلى رائعة من روائع الآداب الشرقية صيغت بلغة عربية ونص يضاهي في قيمته النصوص التي تنتمي إلى تراث الإنسانية.


كتاب
كليله ودمنه
ترجمة من البهلوية الى العربية عبد الله بن المقفع
وقد اعتنى بتصحيحه وطبعه
العبد الفقير البارون سلوستري دساسي
وذيله
بالقصيدة المعلقة
للبيد بن ربيعة العامري
مع شرح
الاستاد الزوزني
طبع
فى مدينة باريز المحروسة
بدار الطباعة الملكية المعمورة
سنة ١٨١٦ المسيحية

« Source gallica.bnf.fr / BnF »

صــورة الغلاف من اليمين حيث الجزء العربي من الكتاب ويلاحظ هنا تسميته بــاريس بمديــنة باريــز المحروسة على طــريقة الكــتاب العرب، وخاصة منهم رفاعة رافع الطهطاوي.


CALILA ET DIMNA,

OU

FABLES DE BIDPAI,

EN ARABE;

PRÉCÉDÉES D'UN MÉMOIRE SUR L'ORIGINE DE CE LIVRE, ET SUR LES DIVERSES TRADUCTIONS QUI EN ONT ÉTÉ FAITES DANS L'ORIENT,

ET SUIVIES

DE LA MOALLAKA DE LÉBID,

EN ARABE ET EN FRANÇOIS;

PAR M. SILVESTRE DE SACY.

ضالة العاقل الحكمة يطلبها حيث كانت

A PARIS,
DE L'IMPRIMERIE ROYALE.
1816.

« Source gallica.bnf.fr / BnF »

الغلاف الخلفي لكتاب كليلة ودمنة وبعده المقدمة والدراسة التي كتبها "دو ساسي" في أكثر من ستين صفحة، ويظهر تحت العنوان التصدير الذي وضعه، وهو "ضالة العاقل الحكمة يطلبها حيث كانت".

سيلفستر دو ساسي مؤلفاً

1- كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد:

ويعرف كذلك بكتاب "المنتخبات" أو المختارات، من النصوص العربية، وهو تجميع من المصادر المختلفة لنصوص عربية شعرية ونثرية أكثرها أدبي وإن لم تخل من مقتطفات من المصادر التاريخية. اشتهر هذا الكتاب في أوساط المستشرقين وتجاوز الطابع المدرسي الذي رُسم له في الأصل ليضحي مصدراً من أهم المصادر في دراسة العربية ويحصل صاحبه على جائزة مخصصة لترجمة النصوص الشرقية، تمنح من قبل الإمبراطور[1].

ويعدّ هذا الكتاب صدى لتأثر "دو ساسي" بالأصول التي تلقى عنها اللغات القديمة؛ أي اللاتينية واليونانية، فقد كان يديم النظر في مؤلفات تشتمل على شذرات نصية ونماذج مختارة

(1) هي ما كان يعرف بـ prix decennal ، أنشئت بفعل مرسوم مؤرخ في 11 سبتمبر 1804 ، انظر :

Rapport du jury par l'empereur et roi pour le guge, ent des prix decennaux; Paris؛imprimerie imperiale; 1810, p122. https://books.google.com.sa/books?id=FQ4_AAAAYAAJ&pg=PA122&dq=le+prix+decennal+(+de+sacy&hl=fr&sa=X&ved=2ahUKEwj-orOH7KLuAhWIqaQKHVi1DWwQ6

ويعمل على حفظها لاكتساب اللغة. وقد طبع "دو ساسي" هذا الكتاب بعنوانين: عنوان باللغة الفرنسية يحيل على معنى المقتطفات أو المختارات النصية، وهو Chrestomathie Arabe وعنوان عربي مسجع على طريقة القدامى في وضع العناوين، وهو: "كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور"(1).

وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا الكتاب هو مجرد تجميع من نصوص معروفة، ولكن جهد "دو ساسي" كان يتقصد شيئًا أبعد من هذا فقد أشير في العنوان إلى الغاية التعليمية المتمثلة في تقديم نماذج موازية للدرس وقراءات مفيدة للمتعلمين، لكن الغاية الأبعد تتمثل في تقديم سجل متنوع للذوق الأدبي العربي والجماليات الفنية في النصوص الممثلة لها. ولابد من الإشارة

---

(1) A. J. SILVESTRE DE SACY. Chrestomathie Arabe ou extraits de divers écrivains arabes tant en prose qu'en vers, a l`usage des eleves de l`ecole speciale des langues Orientales vivantes ; Paris, imprimerie imperiale; 1806.

أعيد طبعه في 2008 في طبعة مشتركة بين مؤسسة بيت الحكمة في تونس والمنشورات الجامعية الفرنسية، وقد أشير في الصفحات الأولى بعد الغلاف إلى أن إعادة النشر في طبعة منقحة هو مبادرة من مؤسسة بيت الحكمة وقد عمل على ذلك مجموعة هم:Francois Deroche وعبد العزيز قاسم وأحمد العايد وهالة وردي ومحمد اليعلاوي. وقد ساندت هذه المبادرة مؤسسة Khora الفرنسية والسفارة الفرنسية في تونس. وضعت صورة تمثال أقيم لسيلفستر دو ساسي على الغلاف وضُمّن العنوانان العربي والفرنسي في صفحته وطبع في مطابع منشورات الجامعة الفرنسية في سبتمبر 2008.

إلى أن متن هذا الكتاب مشكّل من مواد مختارة اقتطفها المؤلف من مجموعة واسعة من المخطوطات ووضعها على ذمة الطلاب ليستفيدوا منها في تنمية قدراتهم اللغوية والاطلاع على جوانب مهمة من الحضارة العربية الإسلامية، فقد كان تصوّر الاستشراق عنده لا ينفصل فيه تعليم اللغة عن فهم المكونات التاريخية للثقافة ومؤسساتها المختلفة.

وقد صدر الكتاب أول مرة في سنة 1806 متضمنًا رسالة إهداء الكتاب للإمبراطور نابليون بونابارت، خلت منها الطبعة الثانية في 1826.

ضمّن "دو ساسي" في كتاب الأنيس المفيد فصولاً من كتاب "عجائب المخلوقات" للقزويني ومقامتين للحريري، ومن القصائد الشعرية ضمّن لامية العرب للشنفرى وقصيدة للنابغة الذبياني وقصيدة للمتنبي والقصيدة الطنطرانية لمعين الدين أبي نصر الطنطراني (ت 485هـ)، ومنتخبات من شعر ابن الفارض، ومقتطفات من كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي، ومقتطفات أخرى من كتابه "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، وفصولاً من كتاب "تاريخ الدول" للفخر الرازي وهو أول ما بدأ به.

ومفيد أن نشير إلى أن مستشرقيْن آخرين سبقوا "دو ساسي" في وضع كتاب للمختارات من النصوص العربية، وخاصة منهم المستشرقين الألمان، مثل "رايسكه"، ولكنه لم يشر إلى أنه نهج

نهجهم[1]، واكتفى في مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب بالإشارة إلى تفضل "دو تاليران " وزير العلاقات الخارجية بمدّه ببعض الوثائق المهمة، مثل معاهدة السلام بين ملك المغرب والدولة الفرنسية في 1767، فضلاً عن المراسلات بين إمام مسقط وإمبراطور الحبشة، الأمر الذي عبّر عنه بكثير من الامتنان مستشعراً قيمة ما يضعه بين يدي القارئ من نصوص فائقة الأهمية وسبقه في نشرها، فهي إلى جانب ما اختاره من القطع الأدبية تعدّ نـوادر توشح الكتاب وجواهر ثمينة تزيد في نفاستهِ. وأضاف "دو ساسي" أن كل الوثائق المتعلقة بالحملة الفرنسية على مصر قد أضحت متاحة، ولكن هذا لم يمنع من تضمينها في الكتاب، فعلى الرغم من اتجاهه نحو النص الأدبي أحيانًا، يبقى شيخ المستشرقين الفرنسيين معتقداً أن معرفة الشرق وفهم ثقافته، تمرّ حتما عبر مشهد غني ومتنوع من النصوص الشواهد التي يبرّر تجميعها في ضميمة واحدة، الغاية المتمثلة في جعل الوثيقة النصية ناطقة بملامح الحضارة ومعبّرة عنها في مختلف تفاصيلها وأبعادها.

يعوّل "دو ساسي" على الاختيار الدقيق والواعي للنصوص في تشكيل نوع من الانطباع الذي يرمي إليه من خلال المعرفة

---

(1) ذكر "دو ساسي" أن مختاراته اشتملت على مقامة للحريري سبق أن أوردها بعض المستشرقين الألمان في مؤلف له في منتخبات النصوص العربية وقد عزا ذلك إلى نوع من توارد الخواطر مشددا على أن لكتابه فضلا عظيما يجعله يتفوق على كل ما سبقه وهو أنه جمع من الوثائق غير المعروفة وغير المنشورة قدرا كبيرا. انظر مقدمة الطبعة لسنة 1806.

التي تحصل للطالب المطلع على محتوى الكتاب والمتدبّر لما فيه؛ ولذلك حرص على تنويع المختارات حيث يعدّ اختياره للقصيدة الطنطرانية مبررًا بالرغبة في إعطاء فكرة عن نوع من الخطاب الشعري في جنوحه نحو الألاعيب البلاغية والمبالغة في لزوم ما لا يلزم.

ذيّل "دو ساسي" مختاراته بالشروح اللازمة والتعليقات الضرورية معربًا عن صعوبة التعامل مع بعض النصوص، وأقرّ بأن الملهم في وضع مثل هذا الكتاب هو المزيد من الترغيب في الدراسات الشرقية والعربية في مرحلة أولى، وفي مرحلة ثانية كان الرصيد الهائل من المخطوطات العربية التي وضعت تحت تصرفه حافزًا مهمًا أمده بالمادة المثيرة الحرية بالتحقيق والنشر، لكنه لم ينكر ما واجهه من صعوبات في الترجمة ناجمة عن صعوبة النصوص الأصلية ممّا أوقعه في الكثير من التردد الذي حسمه بالتعليقات في الهوامش التي لا تكفي في نظره لتبرير الحيرة التي تنتاب المترجم، ولاسيما إذا تعامل مع نصوص تنتمي إلى السجلات الديبلوماسية وتوثق مرحلة تاريخية مهمة أو نصوص شعرية عالية الجودة.[1] وقد ختم "دو ساسي" المقدمة التي وضعها لهذا الكتاب باعتراف طريف هو تفضيله الأدب العربي على الأدب الفارسي[2] ولعل في هذا الاعتراف ما يفسّر

(1) مقدمة كتاب الأنيس المفيد، الجزء الفرنسي، ص 6 (مذكور سابقا).
(2) السابق، ص 14 .

اعتداده بكتاب الأنيس المفيد وعدّه مرجعًا أساسيًا للطالب سواء كان عربيًا أم أعجميًا.

يقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء ذكر "دو ساسي" في مقدمة الجزء الثالث أنه يعتزم تضمين مقاطع من تفسير البيضاوي ومقاطع من ألفية ابن مالك ومن ملحة الإعراب ودرة الغواص للحريري في جزء قادم، وقد ظهرت هذه الأجزاء في 1826، منها جزء للنصوص العربية وجزء يحتوي على الترجمة والتعليقات اللغوية والشروح [1]. ويمكن أن نستنتج من توسيع "دو ساسي" لمشروعه في المنتخبات العربية إيمانه العميق بأهمية النص العربي ولاسيما الأدبي منه، فقد ألقى في 1826 محاضرة في المجمع الآسيوي دافع فيها عن وجاهة دراسة الشعر العربي القديم وكان ذلك ردًا على الألسنة الناقدة التي لم تر في نشره شرحًا لمقامات الحريري أي فائدة، وعلى الرغم مما جُوبهَ به من نقد فقد عمل في السنة نفسها على إخراج كتابه "الأنيس المفيد" واستمر في الاشتغال عليه حتى بلغ أكثر من مجلدين.

وهكذا يتبيّن لنا أن إيمان "دو ساسي" العميق بأهمية دراسة الأدب العربي، هو الذي قاده إلى الاهتمام بنصوص مقامات الحريري وكليلة ودمنة وتحرير المنتخبات العربية وغيرها مما يدل على اختلافه عن الغالبية العظمى من جمهور المستشرقين

---

(1) Chrestomathie Arabe, PUF/ Beit Al Hikma, 2008, p 18 .

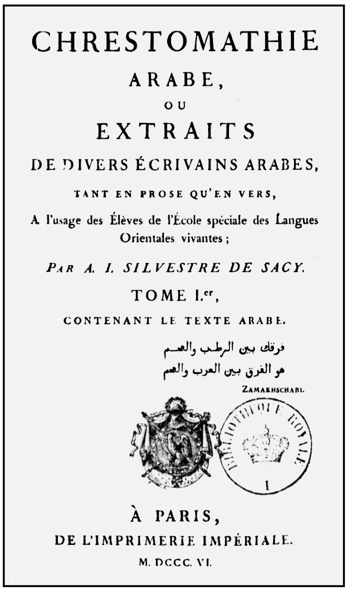
في عصره. يصدر دو ساسي عن فهم للاستشراق ينطوي على نزعة إنسانية ترى في الحضارات الشرقية، ولاسيما منها الحضارة العربية الإسلامية، مكونًا مهمًا من مكونات الحضارة الإنسانية يتجلى خاصة في ما يسمى بـ "belles lettres" أي الآداب، فقد كان تشبّعه وهو صغير بالنصوص الكلاسيكية مؤثرًا في تذوّقه للنص الأدبي وميله لاستجلاء عناصر الإبداع فيه، فكان في تعامله مع الأدب العربي يجهد ملكة الترجمان لتأدية ما في المتون الشعرية والنثرية من فنون وبلاغة. وفي هذا السياق يرد على من أنكروا عليه اهتمامه بالأدب وكان ذلك متزامنًا مع إصداره الجزء الرابع من كتاب الأنيس المفيد مخصصًا متنه للمنتخبات النحوية: ".. وربما يستهويني الاعتقاد بأن أولئك الذين يرون أن الوقت الذي ننفقه في دراسة أعمال النحاة العرب أو دراسة شعر الشعراء وشراحهم، هو وقت ضائع أو أسيء استغلاله، لا يصدرون هذا الحكم القاسي إلا لكونهم لا يفقهون شيئًا من هذه الدراسة، أو على الأجدر لم يستطيعوا تذليل صعوبات النصوص أو لم يرغبوا في بذل جهد في ذلك" [1].

يكتسي كتاب المختارات العربية أهميته من قيمة النصوص التي تضمنها، والتي لم تكن في العصر الذي ألفه فيها "دو ساسي" معروفة أو منشورة، لكن القارئ العربي المعاصر صار يتعامل مع

---

(1) السابق، ص 35 .

كل الأصول المذكورة في الكتاب وقد جرت عليها عمليات تحقيق ودراسة كثيرة مِمّا قد يوحي بانخفاض قيمة الكتاب. إن إعادة طبع الكتاب في الألَفية الثالثة في طبعة منقحة ومزيدة مع تصرف في ترتيب المادة المختارة بإضافتها إلى الشرح والترجمة[1] هو دليل ناصع على القيمة الاعتبارية لجهد المستشرق الفرنسي في الاحتفاء بالنص العربي وتثبيت أبعاده الوثائقية والأدبية.

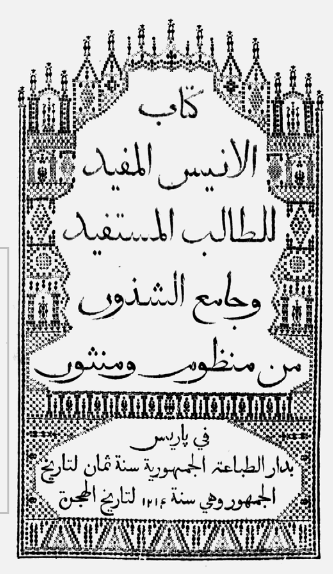


CHRESTOMATHIE
ARABE,
OU
EXTRAITS
DE DIVERS ÉCRIVAINS ARABES,
TANT EN PROSE QU'EN VERS,
A l'usage des Élèves de l'École spéciale des Langues Orientales vivantes ;
PAR A. I. SILVESTRE DE SACY.
TOME I.er,
CONTENANT LE TEXTE ARABE.
فرقك بين الرطب والعجم
هو الفرق بين العرب والعجم
ZAMAKHSCHARI.
À PARIS,
DE L'IMPRIMERIE IMPÉRIALE.
M. DCCC. VI.

صورة الغلاف وفيه العنوان بالفرنسية وتحته تصدير بالعربية تضمن بيتًا للزمخشري، ويبدو أن كتابة تصدير مختار عادة حافظ عليها دو ساسي في جل مؤلفاته.

---

(1) نفسه، ص 15 .


كتاب
الانيس المفيد
للطالب المستفيد
وجامع الشذور
من منظوم ومنثور
في باريس
بدار الطباعة الجمهورية سنة ثمان لتاريخ
الجمهور وهي سنة ١٢١٤ لتاريخ الهجرة

صفحة الغلاف من اليمين حيث القسم العربي من الكتاب وتظهر الزخرفة ومحاولة تقليد المؤلفات العربية والمخطوطات التي تعامل معها "دو ساسي" في طريقة التنسيق والعنونة وتوثيق تاريخ التأليف بالتقويمين الهجري والميلادي.


من كتاب تاريخ الدول
للفخر الرازي
ذكر خلافة هرون الرشيد
بويع بالخلافة في سنة سبعين ومئة كان
الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم
وكرمائهم كان يحج سنة ويغزو سنة كذلك
مدة خلافته إلا سنين قليلة قالوا وكان يصلي
في كل يوم مئة ركعة وحج ماشيا ولم يحج خليفة
ماشيا

بداية الكتاب ويظهر المقتطف من تاريخ الدول للفخر الرازي، وهو عن خلافة هارون الرشيد وفي آخره إلى اليسار الكلمة التي تبدأ بها الصفحة الموالية على عادة النساخ العرب.

2 - في النحو العربي:

عُدّ "دو ساسي" بشهادة المستشرق الفرنسي "ويليام مارسي" مؤسس الفيلولوجيا العربية المعاصرة"[1] وهذا الحكم شهادة له بالريادة في التأسيس للدرس النحوي العربي على نحو مختلف عن سابقيه فهو يصدر في تصوّره للنحو عن مرجعية نظرية مخصوصة هي إيمانه بمفهوم النحو العام. ولابد في هذا السياق من التذكير بأن "دو ساسي" ألف كتابًا في قواعد النحو العام[2]، وهو اختصار لما يجب أن يعرفه المتعلم، وقد كان هذا الكتاب في البدء محاولة ساعد بها أحد أبنائه، وهو "فيكتور" على إجادة علم النحو.

يتماهى مفهوم النحو العام عند "دو ساسي" مع مفهوم آخر هو مفهوم "ميتافيزيقا اللغات"، وكلا المفهومين ضروري لفهم التمشي الخاص بالتأليف في النحو، فقد أصدر إلى جانب كتابه في قواعد النحو العام كتابًا في النحو العربي[3] موجها لطلبة معهد اللغات الشرقية، وكتابًا آخر في شرح ألفيه ابن مالك وهي جميعًا حلقة في سلسلة واحدة.

أما كتابه في مبادئ النحو العربي فقد أعيد طبعه مرات وأشهرها

---

(1) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant, p 79.

(2) De Sacy Silvestre, principes de grammaire générale mis a la portée des enfants et propres a servir d'introduction a l'étude de toutes les langues; Paris; 1799.

(3) De Sacy Silvestre; La grammaire arabe a l usage des élèves de l'école spéciale des langues orientales; Paris; 1810.

الطبعة التونسية في 1904 في مجلدين تحت عنوان "التحفة السنية"، وأما الطبعة الثانية فقد ظهرت في حياة صاحبها عشرين سنة بعد صدور الطبعة الأولى في 1810. لقي هذا الكتاب رواجًا كبيرًا ربما فاق رواج باقي مؤلفاته في تحقيق النصوص الأدبية أو التاريخية أو في الترجمة، وذلك لصبغته العملية وجريه على العادة لدى كل المستشرقين في اختبار مهارتهم في اللغات الشرقية بوضع مؤلف في نحوها فقد كانوا يعتقدون أن معرفة العربية تعزز فهمهم للغات السامية التي تعزز بدورها فهم اللغات القديمة."

يؤمن "دو ساسي" بمبادئ مدرسة "بورت رويال" ويصرّح بأنها مثلت مرجعية معرفية انطلق منها في التأليف في النحو العربي، ومن أبرز أفكارها القول بأن الإعراب قائم على تأسيس منطقي يفسر العلاقة بين الكلمات وليس لشكلها الخارجي أي دور في ذلك. والنحو العام، هو نحو يحاول أن يستخرج قواعد للغة في مفهومها الشمولي والعام، وليست قواعد خاصة بلسان معيّن، وذلك تبعًا للاعتقاد بأن الأفكار تنتظم بحسب منطق يكون المتحكم في ترتيب الكلام؛ فكل اللغات هي نتاج المنطق الخاص بفن الكلام. وهذا ما جعله يتحدث عن ميتافيزيقا اللغة فهو يفترض وجود مشترك عام تنهل منه كل اللغات وكليات نظرية عامة تكون المنطلق في تقعيد اللغة والمنطلق المنهجي في تدريسها، وهو ما حاول إيصاله لابنه لما تصدى لتعليمه نحو الفرنسية. سار "دو ساسي" على هذا النهج في تدريس النحو الفرنسي واللاتيني والعربي والفارسي وأبدى رضاه عنه.

وهكذا يتسنى لنا القول: إن دراسة "دو ساسي" للنحو العربي تتم عبر تنزيله في إطار النحو العام[1]، "فالترجمة عنده انبنت على منطلق نظري هو التصوّر العام الكلي للألسن (..) وهو أمر يظهر أيضًا في اندراجه ضمن المذهب الإنساني من حيث سعة اطلاعه على الألسن المختلفة"[2] مما يكشف عن توجه في فهم نحو العربية منغرس في بيئة معرفية مخصوصة هي المبادئ التي دعت إليها "جماعة بورت رويال" التي تردّ الأنحاء الخاصة للغات المختلفة إلى النحو العام تصديقًا لمرجعياتها الفكرية وتأييدا لنوع من النزعة الإنسانية. وقد أعرب "دو ساسي" في مقدمة كتاب النحو العربي عن إعجابه باللغة العربية التي يراها تحقق المعادلة الصعبة بين الدقة والوضوح، ولكنه لم ينكر ما لقيه من صعوبة في التعامل مع المصطلحات النحوية[3] التي خصها بفهرس في الجزء الثاني من "التحفة السنية"؛ فعمد إلى شرح بالفرنسية للظاهرة النحوية استنادًا إلى الأمثلة المختلفة في

(1) حيزم وئام، قضايا ترجمة مصطلحات النحو العربي: وجهة نظر سيلفستر دو ساسي، مجلة "موارد" ع 22، 2017، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة، ص 33.

(2) السابق، ص 32 .

(3) Troupeau Gérard. Les arabisants européens et le système grammatical arabe. In: Histoire Épistémologie Langage, tome 2, fascicule 1, 1980. Éléments d'Histoire de la tradition linguistique arabe. pp. 3-7; doi : https://doi.org/10.3406/hel.1980.1048 https://www.persee.fr/doc/hel_0750-8069_1980_num_2_1_1048

الاستعمال متبعًا الشرح بالقاعدة عاقدًا مقارنة ضمنية بين الظاهرة النحوية موضوع الشرح وما يقابلها في النحو الفرنسي، وبذلك يغنم تفسير المصطلح النحوي ومضمونه النظري ومجاله المتمثل في الماصدق، في الوقت نفسه الذي يستدعي فيه في ذهن المتعلّم الظاهرة النحوية الموافقة في نحو اللغة الأم بالنسبة إليه. ومن ذلك مثلاً أنه في الجزء الثاني من الكتاب يخصص بابًا يسمه بـ"شكل الأسماء"(1) وفيه يتعرض إلى الفرق بين المشتق والجامد في أنواع الأسماء في العربية، ثم يتعرض إلى أنواع الأسماء المشتقة ويصنفها بحسب عدد حروفها فيذكر الرباعي والخماسي وغير ذلك. كما يخصص قسمًا كبيرًا من الجزء الأول لما سماه syntaxe وهو، وإن كان يعني في الفرنسية علم التركيب، فإن "دو ساسي" استعمله للدلالة على الإعراب وفيه بيّن بشكل تطبيقي، انطلاقًا من أمثلة كثيرة، الانسجام بين الأبنية الذهنية المنطقية ونظام الجملة في تركيبها وبنائها.

لقد علق بعض دارسي "دو ساسي"، وهو جورج سالومون"، على مؤلفاته في النحو العربي تعليقًا طريفًا ذهب فيه إلى أنه آخر النحاة البصريين(2). ولعل في هذا ما يؤكد اتجاهه العقلي وفلسفته في التأليف في النحو العربي؛ فقد عُرفت مدرسة البصرة بمنزع

---

(1) De Sacy Silvestre, Grammaire Arabe, 3ème édition, l`imprimerie rapide, Tunis, 1904, pp271-274.

(2) Salomon Georges, in "Bibliothèque des arabisants français, T 1 Silvestre De Sacy, p 61.

عقلي واضح في طريقة طرحها ودفاعها عن مذهب القياس وغير ذلك، وقد يكون فيه أيضًا ما يؤكد تمسكه بالمصادر القديمة ومحاولة محاكاة أصحابها دون الخروج عن النسق المعرفي الذي يسم التفكير النحوي عنده؛ ونعني بذلك آراء مدرسة بورت رويال، وهي بدورها في انسجام تام مع المذهب الديني الجانسيني، وبهذا تكون النسقية قد اكتملت في ذهن "دو ساسي" مشكلة في الآن ذاته مذهبًا في البحث العلمي ومذهبًا في الحياة والفكر.. أما معاصروه فقد وجدوا له المبررات وخاصة في تقسيمه الجزء الخاص بالإعراب بحسب أقسام الكلام في العربية من اسم وفعل وحرف [1] .

---

(1) Sedillot, Jean .Jacques, Notice de l`ouvrage intitule : "Grammaire arabe a l`usage des eleves …,
Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France, pp 8-9.

سيلفستر دو ساسي في ميزان الدارسين
أو النقد العلمي للاستشراق المبكر

تندرج الدراسة العلمية لأعمال المستشرقين ضمن ما يعرف في تاريخ الأفكار والمقاربات النقدية بـ "نظرية الاستشراق". ولا شك في أن "دو ساسي" قد مثّل حتى في حياته موضوعا للكثير من المراجعات والدراسات التي كانت تصدر- في الغالب- عن زملائه من المستشرقين الفرنسيين أو غيرهم يستدركون فيها على بعض ما أصدره أو يشيدون بجهوده؛ فقد خصص أكثر تلاميذه نباهة، وهو "هنريش لوبرشت فيشر" أكثر من 1200 صفحة للفحص النقدي لآثار أستاذه [1] ولكن مثل هذه المراجعات لم تكن تجذراً حقيقيًا في تدبّر الإسهام الذي تحقق للمدرسة الفرنسية للاستشراق وللمعرفة الإنسانية على نحو عام، كما لم يكن فحصًا دقيقًا لابستمولوجيا المعرفة الاستشراقية وتفكيكًا لرواسمها. ولعل الخطاب الذي أجرى حفريات نقدية في الاستشراق، ولاسيما منه المرحلة التي يمثلها دوساسي، هو الخطاب الذي قامت عليه أطروحات إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" [2].

(1) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant, p 82 .

(2) Said, Edward. W, L`orientalisme, trad Catherine Malamoud, Ed Seuil, 1997 .

لقد بات معلومًا بعد ظهور هذا المؤلف وانتشاره أن الاستشراق يمثل معرفة من المعارف القابلة للنقد، معرفة أنتجت خطابًا يمكن أن يتحول إلى موضوع دراسة علمية لم تكتف بالتحليل والتقييم؛ بل تجاوزت ذلك إلى إنتاج مصطلحية خاصة بها ومتصورات نظرية قابلة للتطبيق والإخصاب بمفاهيم مشابهة.

ويرى بعض المؤرخين للاستشراق والدارسين لمنجز "سيلفستر دو ساسي" أنه أسس لما يسمى بالاستشراق الأكاديمي، واستطاع في زمن وجيز أن يستقطب الاهتمام وينال المكانة الحرية به وذلك في مقابل من كان يُعرف في عصره من مستشرقين يمكن تسميتهم بالهواة أو المستشرقين غير الرسميين، مثل "فولني"[(1)] الذي كان رحالة ومدوّنًا ومولعًا بالشرق[(2)]. ومن حيث كان

---

(1) هو "قسطنطين فرانسوا شاسبوف دو لا جيرودي، كونت فولني، ولد في 1757 في انجو وتوفي في 1820 في باريس، مستشرق وفيلسوف فرنسي، درس الحقوق والطب، تعلم العربية في الكوليج دوفرانس، تحدث في مذكراته عن رحلته إلى مصر وسوريا. كان صديق بونابارت ورفيقه، ساعده على استعادة منصبه الذي خسره ورافقه في الحملة الفرنسية وقبل ان ينصبه الجنرال الغازي في منصب قنصل، كان مقربا منه أيام الحملة على مصر وكان ناصحا له متوقعا لكثير من المآل السيئ الذي عرفه وهو ما تسبب في قطيعة بين الصديقين.

(2) Décobert Christian. L'orientalisme, des Lumières à la Révolution, selon Silvestre de Sacy. In: Revue du monde musulman et de la Méditerranée, n°52-53, 1989. Les Arabes, les Turcs et la Révolution française. pp. 49-62; doi : https://doi.org/10.3406/remmm.1989.2287; p50 https://www.persee.fr/doc/remmm_0997-1327_1989_num_52_1_2287

"فولني" نموذجًا لطيفًا تقوم علاقته بالشرق على الجانب الوجداني والنظرة الرومنسية، كان "دو ساسي" يمثل الجانب المتجهم- إن صحت العبارة- من الاستشراق الصارم، العالم والخادم لنسقية دينية وسياسية.

لقد نشأ "دو ساس"، وهو يعي تمام الوعي وضع فرنسا بالنسبة إلى تخصص عميق وبعيد الخطر مثل الاستشراق، فكان يأسف لافتقار بلاده إلى الجانب المؤسسي وإلى الهياكل التعليمية والمؤسسات التي تحتضن جهود المستشرقين وتوجهها داخل منظومة متكاملة مثلما هو الحال بالنسبة إلى بريطانيا وألمانيا، وهو بالفعل ما عمل على تأسيسه منذ أن حصل على عضوية الأكاديمية الملكية وعُيّن مدرسا للغات الشرقية، فقد كانت له رؤية وأهداف وتخطيط للبرنامج الاستشراقي الذي يريد تحقيقه، ولم تكن المعرفة باللغات الشرقية وحدها أو الرغبة في مواصلة إرث "أنطوان غالان" هي وحدها ما يحرّكه ويشحنه بالتطلع إلى التطوير [1].

حضرت الإحالات على شخصية "دو ساسي" ومنجزه مرات كثيرة في أطروحة "إدوارد سعيد" عن الاستشراق، ومن ذلك مثلاً الإشارة إليه في سياق الحديث عن التأسيس لعلم الاستشراق الاحترافي والعلمي[2]، أو في سياق الحديث عن احتضانه لمجموعة من المستشرقين الذين هيأهم تكوينه لهم لأن يكونوا أعلامًا في

(1) السابق، ص 53.

(2) Said, Edward. W, L`orientalisme, p 20 .

مجال معرفي مواز، مثل الألماني رائد علم اللغة المقارن "فرانتز بوب" Frantz Bopp الذي نهل من مبادئ بورت رويال ومن الدروس التي كان يقدمها شيخ المستشرقين الفرنسيين[1]. ويتجلى من خلال هذا التصوّر أن الاستشراق كان حاضنًا لمنظومة معرفية يعمل على تأكيدها وتثبيتها عبر الكشوفات العلمية التي تتهيأ له في البحوث وخاصة منها البحوث الفيلولوجية التي عززت تصورًا راسخًا في أصل اللغات يرتبها في سلالتين، هما السلالة الهندوأوروبية والسلالة السامية، وهكذا تستعيد المنطلقات المعرفية المنطلقات الإيديولجية التي يتأسس عليها الاستشراق من حيث هو خطاب قائم بالأصل على مواجهة بين عالمين أو بين كتلتين: كتلة أوروبية غربية وكتلة شرقية عربية أو إسلامية.

ومن الواضح أن غرض "إدوارد سعيد" من دراسة خطاب الاستشراق، هو بيان الكيفية التي يتمثل بها الغرب الشرق، ويمثله ذلك أن المحتوى العلمي الذي ينتجه وينشره ليس محتوى بريئًا إذ يأتي موشومًا بالنوايا الخفية والأطماع الاستعمارية والنظرة الدونية للآخر الشرقي حتى لو كانت حضارته موضوع دراسة ومحط اهتمام وسبب انبهار. يرى "إدوارد سعيد" أن دراسة "دو ساسي" للشرق تقدمه في صورة العالم القصي وتعمل على تقريبه من خلال الدرس العلمي ما يجعل هذه المهمة تتم داخل فضاءات الدروس المغلقة والمجالات المحدودة والضيقة للمتخصصين،

(1) السابق، ص 102 .

فيبدو عالمًا باطنيًا وحيدًا وغريبًا، يختزل في الصفات والمضامين التي يخلعها عليه الدارسون[1] وكأنهم يعملون بذلك على تدجينه وتقريبه من الرؤية الأوروبية ليصبح معقولاً في إطارها.

ولئن أشاد "إدوارد سعيد" بالدور الهام الذي اضطلع به البارون "دو ساسي" في تطوير مدرسة الاستشراق الفرنسي وغيرها، فهو لم ينكر أنه من "أبرز اعلام مدرسة الاستشراق ذات التوجه الاستعماري[2]، نازعًا عنه بهذا الحكم كل مزية علمية ونافيًا أن يكون اهتمامه بالشرق منزهًا عما يُطلب منه وعما تقتضيه المرحلة من تسخير للطاقات العسكرية والديبلوماسية والعلمية لتحقيق السيادة على العالم العربي الإسلامي عبر تأكيد التفوّق الأوربي وتحويل الشرق إلى موضوع معرفة في دائرة الفلك الواسع للمركز الغربي المهيمن. لقد كانت مهمة هؤلاء المستشرقين متمثلة فيما يشبه "الترميم" و"الاستعادة" للشرق بمعايير غربية ولا تستثنى من ذلك عمليات التحقيق والنشر للنصوص الأدبية الموغلة في أدبيتها أو محليتها، مثل الأعمال الكبرى والآثار العظيمة التي تتحول إلى أيقونة دالة على منتجها مثل كتاب "المختارات العربية" La Chrestomathie ، فهي تغدو

---

(1) نفسه، ص 149 .

(2) Matthieu Chochoy; Espagne M., Lafi N. et Rabault-Feuerhahn P. (dir.), Silvestre de Sacy. Le projet européen d’une science orientaliste; UMR 8167. http://www.ifao.egnet.net

علامة على تحويل المنتج الأدبي والفكري الشرقي- عربيًا كان أم غير ذلك- إلى مجرد رمز أو علامة داخل الخطاب الذي احتوى به الغرب الشرق وعوّم فيه منجزه الفكري والحضاري.

وانطلاقًا من منزع استقصائي ربط "إدوارد سعيد" بين ما سماه تأسيس المنظومة الاستشراقية على أساس علمي مع اللاحق في العلم الاستشراقي الفرنسي، فتبين له أن "دو ساسي" شكّل مهادًا صالحًا لمن جاؤوا بعده حيث استطاع "إرنست رينان" Eenest Renan أن يؤسس على أطروحات سلفه ويحول أعماله إلى مرجعية علمية وإدارية سمحت له بتعميم المنوال المقارني والنهج الفيلولوجي ونظرية التطور[1] .

كان للبارون دو ساسي فضل الريادة ووضع اللبنات الأولى لتوجُّه منهجي في التعامل مع الشرق وتشكيل خطابه بدأ معه وانتقل إلى "إرنست رينان" وانتهى مع "كارل ماركس"[2] حيث مثلت النصوص التي انتقاها الأول ورشحها لترسم صورة عن الشرق متطابقة مع خصائص الوعي الأوربي وقدرته القرائية جسرًا للثاني لكي يتدبّر هذه الصورة ويجّذرها داخل تمشّ فلسفي سمح للشرق بأن يتشكل كهوية خطابية دونية ومتدنية مقارنة مع الغرب،

(1) Said, Edward. W, L`orientalisme, pp 154-155.

(2) السابق، ص 147.

أما الثالث فلم يكن مستشرقًا لكنه استفاد من السابقين في تأييد أطروحاته بمرجعية علمية ونصية عملت على تثبيت اللغة الواصفة والمعجم المعتمد في توصيف الشرق وثقافته [1].

بدا الميزان النقدي الذي أعمله "إدوارد سعيد" في كتابه محيطًا بالمنجز الخاص بشيخ المستشرقين الفرنسيين لما له من قيمة في مجال تخصصه ولما له من دور منهجي في رسم الخارطة الأولى لتأسيس خطاب عن الشرق فضلاً عن تأسيس منهجية علمية كاملة أثرت في العلم الاستشراقي والعلوم الآخذة منه بطرف أو المتقاطعة معه؛ وبذلك يغدو تقييم أعمال "دو ساسي" نموذجًا مثاليًا سمح للدارس بأن يجرّب نظريته في نقد خطاب الاستشراق ويدعمها بمدونة صالحة لتقويض المشروع الأوربي في استيعاب الشرق، لكن القراءة المتمعنة لإرث المستشرق الفرنسي خارج إطار الملابسات السياسية والتاريخية يمكن أن تكون سبيلاً لنظرة أكثر دقة وموضوعية.

---

(1) السابق، ص 181.

قالوا عنه:

عبّر المستشرق الفرنسي " ويليام مارسيه " في الخطاب الذي تلاه في الاحتفالية الخاصة بالذكرى المائوية "لسيلفستر دو ساسي" عن مشاعر الإعجاب بالدور الذي نهض به في تأسيس مدرسة استشراق فرنسية تجاوز إشعاعها القطر الأوروبي كله وخص بالحديث المفصّل، إسهامه في دراسات اللغة والحضارة العربية الذي لم يقتصر على دراسة النصوص العظيمة فحسب بل تجاوز ذلك كله إلى وضع المهاد المنهجي والعلمي الذي سيسير عليه المستشرقون من بعده، وبهذا يكون موقف المتأخرين مهما في رصد إنجازات السلف وتقويمها تقويمًا موضوعيًّا وتنزيلها في سياقها التاريخي والتخصصي ضمن مسار تطور الاستشراق وهو ما نلمسه في قوله: " *إننا إذا ما تخيلنا ماضي الدراسات العربية بشكل مختلف عما هو عليه من دون وجود الأستاذ العظيم "سيلفستر دو ساسي" سنراه مجرد عبث لا فائدة منه، (...) وكذلك الصورة التي نرسمها لهذه الدراسات ستكون منقوصة لا محالة إن لم تتضمن اسمه. يضاهي إنجاز هذا المستشرق وحده إنجاز عدد من المستشرقين وكذلك إنجازه بوصفه مستعربًا حيث يغطي إنجاز أجيال كاملة من المتخصصين. ومن دون أن نقلل من حظ التخصصات الأخرى يمكن أن نقول إنه باعث علم الفيلولوجيا الحديثة في الدرس العربي فضلا عن وضعه أسس الدراسات الإسلامية (أو ما يعرف بالإسلامولوجيا) وتمهيده المسالك للدارسين من بعده في تخصص تاريخ الشعوب الإسلامية. وإننا لندين إلى "سيلفستر دو ساسي" بما بلغته بعض التخصصات من*

تطوّر ولاسيما منها علم المسكوكات وعلم البرديات اللذين بلغا اليوم مستوى عاليا لم تكونا لتبلغانه لولا الأساس الذي وضعه هذا المستشرق، هذا الأستاذ. إن إعطاء صورة دقيقة وحقيقية إلى حدّ ما عن إنجازه العظيم يبدو أمرًا صعبًا"[1].

وقال عنه المستشرق الفرنسي "كليمان هوار" Clement Huart[2]:
ولما دنت شمس القرن الثامن من الأفول ظهر في فرنسا عالم تفوق على من سبقه ألا وهو سيلفستر دو ساسي الطائر الشهرة الذي فتحت تعاليمه ومصنفاته لا في فرنسا فحسب بل وفي أوروبا جمعاء بابًا جديدًا لدرس اللغة العربية درسًا علميا (..) وأنعشت فيها روح التنقيب عن العاديات الشرقية التي رفعتها إلى الأوج الذي نشاهده فيها اليوم"[3]، وهو رأي لا يخرج عن تثمين دور السابقين في التأسيس للعلم فضلاً عن كونه صادرًا عن مدرسة في الاستشراق لا تختلف في أسسها وأهدافها عن البيئة التي أنتج فيها "دو ساسي" أعماله ومارس فيها تخصصه بأنواعه لكننا إذا ما نظرنا من زاوية أخرى ربما وجدنا آراء تقيّم منجزه وتتحدث عنه خارج إطار الاستشراق أو الدراسات العربية.

---

(1) Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant. pp79- 84 (بتصرّف)

(2) مستشرق فرنسي تخصص في اللغتين العربية والفارسية، له كتاب عن التاريخ الحديث لبغداد، توفي في 30 ديسمبر 1926.

(3) الدروس العربية في فرنسا بقلم العلامة كليمان هوار عضو المجلس العلمي الفرنسي والمجمع العلمي العربي، ترجمها الشفالية عبد الله بك رعد، أحد أعضاء المجمع العلمي العربي، ص 157، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، نيسان 1925، الجزء 4، المجلد 5.

ذكر "إدوارد سعيد" في كتابه عن الاستشراق "سيلفستر دو ساسي " وكشف عن الرؤية الفلسفية والفكرية التي نهل منها مستشهداً برأي "الدوق دو بروغلي" (le duc de Broglie) الذي ذهب إلى"*أن منجز هذا المستشرق استطاع أن يحقق التوافق بين أسلوب العالم وأسلوب المتخصص في تاريخ اللاهوت المقدس وانه هو وحده القادر على تحقيق المصالحة بين آمال لايبنتز*[1] *وجهود بوسويه*[2] "[3].

أما بالنسبة إلى الدارسين العرب فيمكن أن نقتصر على رأي أحمد درويش الذي درس أعمال "دو ساسي" من وجهة نظر الدراسات المقارنية وخلص إلى الرأي التالي: "*ولا شك أن ظهور شخصية سيلفستر دو ساسي في فرنسا يعدّ بداية حقيقية لظهور الدراسات العلمية المنظمة في مجال الاستشراق حول الأدب العربي والنزعة الموضوعية الحديثة في الاستشراق مدينة لساسي بشخصيته التي أحبت العربية وتعمقت درسها وبمدرسته التي انتمى إليها عشرات الرواد في مجال الاستشراق من مختلف البلاد الأوروبية*.[4]

ومن الآراء الطريفة والأقوال اللطيفة ما قاله "الحبيب حميدة "صاحب كتاب: بزوغ القمر أو مقامات الحريري بالصور وفيه

---

(1) الفيلسوف الألماني المعروف (Gottfried Wilhelm Leibniz) توفي في 1716.

(2) رجل دين وكاتب فرنسي مشهور بخطبه الوعظية وأقواله المأثورة، توفي في 1704 (Jacques Benigne Bossuet)

(3) Said, Edward. W, L`orientalisme, trad Catherine Malamoud , Ed Seuil , 1997, p 148

(4) درويش احمد، الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997 ، ص 24 .

دعوة واضحة لقراء العربية حتى يفيدوا من الاطلاع على ما وضعه دو ساسي وما ألفه: *"امتاز هذا العالم القدير والمستشرق الخطير بين مستعربي العالم بشرحه للمقامات الحريرية باللغة العربية زيادة على اعتنائه بكافة الآداب ورفعه عنها كم من حجاب وكان في زمانه آية إعجاز إذ برع في تدريس ما يهم كافة أمم الشرق وفاز فلا يجدر بنا نحن خدمة اللغة العربية وتبعة الفنون الأدبية جهل أمره وعدم إدراك كنهه تقديرًا لقيمته حق قدرها وإحاطة بكمالاته ومعرفة حقيقتها نظرًا لعمله الجليل وما أبداه من الباع في كم من سبيل حتى شاع ذكره وذاع ونكس له المستشرقون كل يراع على اختلاف الملل وفي كل البقاع* [1]".

نموذج من مؤلفاته:

نعرض في ما يلي مقتطفات مترجمة[2] من الدراسة التي قدمها "دو ساسي" في الجلسة العامة للمجمع الآسيوي، وكان ذلك في 27 أبريل سنة 1826، وموضوعها "حول فائدة دراسة الشعر العربي"[3].

---

(1) حميدة الحبيب، بزوغ القمر أو مقامات الحريري بالصور (مع شرحها بالقلم العربي للمستشرق البارون سيلفستر دساسي، ديوان القمر، المطبعة التونسية 1937 ،ص14 .

(2) ترجمناه مباشرة من الأصل المودع في نسخة إلكترونية في قواعد البيانات للمكتبة الوطنية الفرنسية.

(3) De Sacy, Silvestre, De l`utilite de l`étude de la poesie arabe, librairie orientale, Paris, 1826.
https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k58383327/f6.iteme#

فائدة دراسة الشعر العربي

لقد عمد المستشرق الألماني الشهير "رايسكه"، أكثر المستشرقين الأوروبيين اهتماما بالشعر العربي، لمّا تصدى لتقديم معلقة الشاعر طرفة بن العبد، إلى الكثير من التبرير بدءاً بالمقدمة التي وضعها لشرح هذه القصيدة، فقد رأى أنه من المتعيّن عليه أن يفسّر اختياره ويعتذر لدى الجمهور حتى يمنحه فرصة تقدير النجاحات التي حققها تحت إشراف المستشرق الشهير "شولتنز"، في دراسة اللغة العربية.

لم يكن "رايسكه" يخفي الاعتراضات التي يمكن أن يثيرها اختياره هذا. وقد يتساءل البعض: بم يمكن أن نفيد إذا درسنا الشعر العربي؟ وما الثمار التي يمكن أن تجنيها المجتمعات من حيث تهذيب الفكر أو الزيادة في ملاذ الحياة؟ في حين يتذمّر البعض الآخر من الغموض الذي يغشى المعاني في هذا الشعر ومن الجهد الذي يتطلبه للظفر بفهمها. إن بعض الرجال من أصحاب الأذواق العصية يأخذون على الشعر المشرقي ميله للمبالغة، ويخلعون هذا الحكم على كل الشعر دون اعتبار للعصر أو المنطقة الجغرافية. وقد يطرح البعض، متأثراً بمشاعر الصداقة ومراعياً لمصلحة المؤلف، سؤالاً: لماذا لم تختر مقطعًا من مؤلف تاريخي ما دمت تبحث عن نشر شيء في إطار دراساتك المفضلة، يجلب لك تقدير الجمهور؟ ففي قراءة تاريخ الأحداث التي جرت في عدوة أخرى من العالم وفي

التدرّب على معرفة الأمكنة والأزمنة التي كانت شاهدة عليها، يمكن للعلماء أن يدركوا فائدة هذه الدراسات وأهميتها. ومن المحتمل أن يكون الخيار المخالف سببًا في تراجع بدل أن يكون مزية.

إني أعترف، يقول "رايسكه" بأن أولئك محقون وأنا لم أنتظر اعتراضًا منهم حتى أكون متيقنًا من رأيي فعلاً فأتساءل ما المباهج التي يتمتع بها الشعر العربي على غرار تلك التي نجدها في الشعرين اليوناني واللاتيني؟

لم يعرف العرب السرد، بيد أنه جوهر الشعر، فلم يكونوا عارفين بالكيفية التي يعالجون بها قصة لتمضي عبر التحولات والانعطافات نحو الانفراج السعيد، فهم يجهلون الشعر الملحمي، كما أن جهلهم بالتراجيديا والكوميديا ليس أقل. لقد قادني ذوقي دائمًا نحو التاريخ، لكنني عندما فكرت في إصدار هذا الكتيّب، كنت مفتقراً للمعارف الأساسية اللازمة للخوض في موضوع تاريخي.

(...) ولكن بما أن الأسئلة التي فرضت نفسها على هذا العالم المستشرق حول فضل شعر العرب والفوائد التي نجنيها من دراسة معالم العبقرية الشعرية لهذه الأمة، لا يبدو لي أنها قد لقيت إجابة نهائية، فإنه قد يسوّغ لي أن أطالب هذا الجمع المصغي إلي بأن يعيرني شيئًا من الاهتمام، حتى أبيّن له أن هذه الدراسة ليست جحودًا أو دراسة فاشلة مثلما يعتقد هؤلاء النقاد، بل إننا، وإن مضينا بعيدًا في هذا المسلك فقد نكون لامسنا شيئًا بسيطًا من هذا التخصص المهم من تخصصات الآداب الشرقية.

وقبل الدخول في موضوعي، أحب أن أشير إلى أني لن أخوض إلا في شعر العرب وأني لن أذكر أي شاهد من الشواهد. عندما أتحدث عن الفوائد التي نجنيها من دراسة الشعر العربي فإني أفترض في مرحلة أولى ألا نطلب منه أ كثر مما نطلبه من الشعر اليوناني واللاتيني، وفي مرحلة ثانية فأنا لا أقصد بحديثي إلا القطع التي تعدّ شعرية فعلاً ولا أقصد النصوص النحوية أو المعجمية أو المواد التي تنتمي إلى المؤلفات الطبية والدينية والفقهية وعلم الفلك وغيرها التي جاءت في شكل شعري، ولم يكن همّ ناظمها سوى إقامة الوزن وتطلّب القافية، وهي في الحقيقة لا تعدو سوى أبيات، مثل أبيات "ديسبوتير" التعليمية أو الجذور اليونانية لبورت رويال. وقد يكون من المفيد أن أنشر بعضًا من كتبي، مثل تحقيق ألفية ابن مالك وملحة الإعراب للحريري ولكن ذلك لن يكون إلا بحسب المنظور الذي يؤمن به هذا المذهب.

ومن الدوافع التي تحثّ على دراسة الشعر العربي ما يكون عامًا ينطبق على أدب كل أمة من الأمم، ومنها ما يكون خاصًا مستمداً من الظروف الخاصة بالأمة العربية. أما النوع الأول أي الدوافع العامة فيمكن أن تختزل في الفكرة التي مفادها أنه إذا ما رمنا أن نعرف لغة ما فإن ذلك يكون بأن لا نترسم لنا هدفًا أوحد هو أداؤها لحاجتنا المألوفة، بل ينبغي أن ننظر إليها في امتدادها الذي لا يعني حفظ كل المصطلحات الخاصة بالفنون والعلوم التي يكون استعمالها حتى بالنسبة إلى اللغة التي تكلمنا بها منذ طفولتنا

منحصراً في دائرة ضيقة من المستعملين الذين وهبوا أنفسهم لنوع من الدراسات المخصوصة، وإنما يعني ذلك الاقتصار على معناها الحقيقي أي أن لا نكون ذاهلين عن أي شكل من أشكال الخطاب وعن أي عبارة من العبارات التي يستعملها كبار الكتاب من الشعراء أو الناثرين الذين يؤلفون الأدب بهذه اللغة. هل كنا نجرؤ على امتداح تمكننا من اللغة اليونانية لو لم نكن قد قرأنا "هوميروس" أو "سوفوكل" أو "أخيلوس" أو "بيندار"؟ (..). كلما اختلفت اللغة المستعملة في نظم الشعر لدى أمة من الأمم عن اللغة التي تستعمل في التخاطب اليومي نثراً، فإنها تقتضي الدراسة بشكل أكثر إلحاحًا وتغدو ضرورية لمن يتطلع إلى اكتساب معرفة فائقة باللغة؛ فلا يمكن أن ننكر من هذا المنظور أن الأطروحة العامة التي ندعمها تنطبق بشكل مخصوص على اللغة العربية. بيد أننا إذا ما تركنا هذه الاعتبارات العامة والتفتنا إلى الأسباب الخاصة التي تجعل من دراسة الشعر العربي أمرًا ضروريًا فإننا سنكون أكثر اقتناعًا بالفوائد الجمة لهذه الدراسة.

فلنلاحظ بدءاً أنه من العصر السابق لظهور النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) وحتى القرن الثاني للهجرة، لا يوجد أي معلم تاريخي يمكن أن يخبرنا عن صفة حضارة العرب ولا عن آرائهم وأفكارهم المسبقة وعاداتهم وتشريعاتهم وسياستهم، وعن حياة المجتمع بشكل عام ومن كل النواحي، إلا الأشعار التي أُثرت عن القدامى والأمثال والأحاديث المحرفة جزئيًا التي تناقلها المفسرون الأوائل للقرآن والنحاة الذين أوقفوا جهودهم على تفسير تلك

الأشعار العتيقة أو على البحث عن مصادر تلك الأمثال. عند كل محطة من المحطات التي شكلت نقطة معتمة في التاريخ القديم، كانت تلك الشذرات الشعرية تقريبًا هي ما يُفزع إليه للاحتجاج على وجاهة استعمال لغوي معين أو موقف من المواقف التي تُنسب إلى الشخصيات المقدسة ممن عُدُّوا أجداداً للمسلمين (..). إننا نستطيع بالفعل أن نقرأ بعض هذه القصائد القديمة بإعمال الفكر حيث يتجلى فيها تعقيد النظام النحوي العربي على نحو صارم أكثر مما يتجلى في النص القرآني، وحيث نجد قواعد العروض العربي شديدة التصنّع مطبقة بدقة واستيفاء شديدين. وبقطع النظر عن الاعتقاد بوجود شعراء أفذاذ قد طبعوا العصر بطابعهم الخاص وصاروا مثالاً يحتذى في عهدهم وذلك منذ زمن بعيد قبل ظهور باعث الإسلام في شبه الجزيرة العربية في أوساط القبائل الكثيرة التي سكنت في سهول بلاد الرافدين أو في بلاطات ملوك الحيرة والغساسنة، فإننا لا نشك في أن مثل هؤلاء الرجال قد أسسوا بشكل نهائي وقاطع قواعد الكلام وأملوا السَّنَن الذي سيتبعه الشعر العربي، هذا السَّنَن الذي ما يزال رغم مرور قرون من الزمن يؤثر فيه إلى اليوم وقد يكون أثر في الفرس والأتراك أيضًا.

هل تريدون أن تعرفوا على نحو عميق حياة الرجل المدهش الذي لم يكن له من البدء أي قدَر سوى تنقية الديانة في بلده وتحطيم الوثنية، فأسس بحكم الظروف دولة دينية ستغير من ملامح قسم كبير من قارة آسيا وجزء من إفريقيا وأوروبا؟ ستجدون في كل صفحة اشتملت على قطع شعرية، الكثير من المبهمات إذا

لم تكونوا قد اعتدتم تلك الصور العصية على الفهم والتعابير المخصوصة التي يتسم بها الخطاب الشعري. ليس في العربية نص من النصوص المعالم، مثل الكتاب الذي يحمل هذا العنوان البسيط "الأغاني"، فهو موسوعة ضخمة يمكن أن تكون كافية في حد ذاتها لتشكيل صورة عن الثقافة العربية قبل الإسلام وعن العصر المجيد للخلفاء الراشدين، ولكن من هو الرجل الذي سيجازف بقاربه غير المتين في هذا المحيط العظيم، ولاسيما بعد أن اعتادت ذائقته بفعل النظام التعليمي على قراءة النصوص الجافة لأخبار الوقائع أو الأخبار الباردة التي يوردها أصحاب الحوليات؟ بل إننا نجد حتى في كتب الحوليات التي تعد غالبًا كتبًا نحيلة أن الكتاب المشرقيين يستمتعون بإيراد مقاطع شعرية تتفاوت في الطول والقصر بوصفها حجة على بعض الأحداث أو بوصفها نوعًا من التوشيح الأسلوبي أو الترويح على القارئ، وحتى إذا ما رمنا حذف هذه الأشعار أو – وهو غير ملائم – تغيير طبيعة هذه المؤلفات على نحو ما نجده في مختصر تاريخ الطبري؛ فإننا نظل محتاجين لاكتساب بعض المعرفة الخاصة بأسلوب الشعر العربي. وما قلته عن كتاب الأغاني ينطبق بشكل منطقي على المصنف العربي في الأمثال للميداني الذي ما يزال في انتظار من يحققه وينشره، وكذلك الشأن بالنسبة إلى وفيات الأعيان لابن خلكان والكثير من المؤلفات الأخرى التي لا نشك في قيمتها العالية.

خاتمة

تعدّ الإحاطة بمنجز المستشرقين الفرنسيين مشروعًا مهمًا يستنفر البحث في مؤلفات المستشرق موضوع الدراسة فضلاً عما كُتب عنه، وهو ما يمثل مراوحة بين استنطاق المتن والنظر في الحواشي. ويكتسي البحث في إسهام البارون "سيلفستر دو ساسي" أهمية خاصة بالنظر إلى المرحلة الزمنية التي تبلورت فيها تجربته؛ سواء بالنسبة إلى البيئة الأكاديمية الفرنسية وتقاليد الاستشراق فيها، أم بالنسبة إلى أوساط الدارسين العرب، فقد ظهر في زمن ما تزال فيه جل المصادر العربية -التي هي عندنا اليوم من أدوات العمل الأساسية – مجهولة عند القارئ العربي، غريبة عنه رغم أنها روح تراثه ومعدن ثقافته.

انكبت أجيال من المستشرقين على ما يصلها من مخطوطات عربية - كانت تُتناقل على نحو عشوائي وغير قانوني أحيانًا، لتستقر في مكتبات الأكاديميات الأوربية الملكية وعلى ملكية أفراد[1] -، تحققها وتمعن في التعليق عليها دون أن تفيض في الشرح مكرسة النتائج التي توصلت إليها ومؤسسة لنوع من

(1) درويش أحمد، الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ص 11.

العلاقة العلمية والتبادلية بين مجتمع واسع من المتطلعين إلى حضارة الشرق وتراث العربية والمتخصصين فيها. لقد استطاعت أجيال من المنخرطين في المشروع العلمي للاستشراق أن يوجدوا لهم مكانة داخل منظومة سياسية واستراتيجية جعلت من فهم الثقافة العربية الإسلامية جزءاً من رهاناتها القومية. استفاد جيل "سيلفستر دو ساسي" من الوضع الذي كانت عليه البلاد العربية في بحثها عن مسلك للخلاص، ليجد منافذ شتى لفضوله العلمي وينتقي من المتون المخطوطة ما يتطابق مع الرؤية العامة التي تحكم الحضارات الشرقية وتخدم الفرضيات العلمية التي انطلق منها. ولا شك في أن في جهد شيخ المستشرقين الفرنسيين إضافات علمية ولطائف فضلاً عن الإقرار بعبقرية اللغة العربية ورفعة النصوص المؤلفة بها، ولكن ذلك لم يكن في إطار التفاعل الثقافي والتراسل الحضاري بقدر ما كان بحثًا عما يؤيد أطروحات علمية مخصوصة ونوعًا من الممارسة لهواية علمية تتناسب مع شريحة واسعة من المهتمين بالشرق، فقد كانت المخطوطات تتدفق بالمئات مستهوية المتولعين بشكل الخط العربي والرسوم لكي ينظروا فيها ويكتبوا عنها[1]. لم تكن الدراسات التي قدمت محاولات دقيقة في جملتها وتحقيقات علمية؛ بل جاءت في أغلبها تقارير وملاحظات، وهو ما يبرر انتظارات هذا الجيل وطبيعة اهتمامه بالنص العربي فضلاً عن

(1) المرجع السابق، صص 12 -13 .

النصوص المستهدفة، وهي في الغالب نصوص تاريخية ووثائق ديبلوماسية وحربية، ولم تحظ النصوص الأدبية إلا بجزء يسير من الاهتمام، إلا أن البارون دو ساسي قد خرق هذه القاعدة في بعض ما أخرجه من نصوص فالتفت إلى ما في المتون الأدبية من أسرار لغوية ومعان إنسانية وقضايا تردّ إلى المشترك الإنساني وشواهد التفاعل الحضاري. كما يمكن أن يُفهم تأليفه في النحو العربي في معنى حرصه على إبراز الجانب الذي يظهر العربية لغة حية يمكن أن يندرج نحوُها ضمن الأنحاء المخصوصة الصادرة بدورها عن النحو الكلي أو النحو العام.

لقد كان سيلفستر دو ساسي صدىً لمرحلة مهمة في تاريخ الاستشراق العالمي والاستشراق الفرنسي تحديدًا، هي المرحلة التحضيرية لتشكّل ملامح فرنسا الاستعمارية، فاضطلعت جهوده بدورها في التأسيس ورفادة مسلك معين من مسالك الدرس الاستشراقي، لم تكن الأجيال اللاحقة بُعيد العهد الاستعماري وفية تمامًا له.

المصادر والمراجع

المصادر:

- **De Sacy Silvestre Antoine Isaac**, principes de grammaire générale mis a la portée des enfants et propres a servir d'introduction a l'étude de toutes les langues ; Paris ; 1799
- **-De Sacy Silvestre Antoine Isaac** ; La grammaire arabe a l'usage des élèves de l'école spéciale des langues orientales ; Paris 1810
- **De Sacy Antoine Isaac** ;_Chrestomathie Arabe ou extraits de divers écrivains arabes tant en prose qu'en vers, a l`usage des eleves de l`ecole speciale des langues Orientales vivantes ; Paris, imprimerie imperiale ;1806
- **De Sacy Atoine Isaac** , Kitāb šarḥ kamm al- Maqāmāt li-al-šayẖ Abī Muḥammad al-Qāsim ibn ʿAlī al-Ḥarīrī 1801-1900
  F. 1-79v : Extraits du commentaire publié par S. de Sacy . Commentaires de la ẖuṭba et des maqāmāt 1-5, 13-14, 38-39. GAL, I², ...
  https://gallica.bnf.fr/services/engine/search/sru?operation=searchRetrieve&version=1.2&query=%28gallica%20all%20%22silvestre%20de%20sacy%20maqamet%22%29&lan
- **De Sacy Atoine Isaac** ; Les séances de Hariri
  publie en arabe , avec un commentaire choisi , par M le baron Silvestre De Sacy ; Paris ; imprimerie royale; 1822
- **de Sacy ,Antoine-Isaac Silvestre** , « Notice des Manuscrits laissés par Dom Berthereau, religieux bénédictin de la c. de S. Maur, mort en 1794 », dans *Magasin Encyclopédique*, 1801, p. 7-26 ; tiré à part en 1810
- **De Sacy Antoine Isaac** ; calila et Dimna ou Fables de Bidpai en arabe précédé d`un mémoire sur l`origine de ce livre et sur les diverses traductions qui en ont été faites dans l`orient , et suivies de la Moallaka De Labid; en Arabe et en Français ; par M Silvestre De Sacy : Paris ; l`imprimerie royale , 1816
  Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France
- **De Sacy, Silvestre Antoine Isaac** , De l`utilité de l`étude de la poésie arabe , librairie orientale , Paris , 1826
- **De Sacy Silvestre Antoine Isaac**, Grammaire Arabe, 3eme edition, l`imprimerie rapide, Tunis , 1904
- **De Sacy Silvestre Antoine Isaac,** Chrestomathie Arabe, Hela werdi , Abdulaziz Qassem , Mohamed yaalaoui, Francois Deroche ; Ahme, Alayed ; PUF/ Beit Al Hikma , Tunis; 2008 ,

المراجع:

أ- العربية

- **بدوي، عبد الرحمن،** موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط (3) بيروت 1993.
- **حميدة الحبيب،** بزوغ القمر أو مقامات الحريري بالصور (مع شرحها بالقلم العربي للمستشرق البارون سيلفستر دساسي، ديوان القمر، المطبعة التونسية 1937.
- **حيزم، وئام،** قضايا ترجمة مصطلحات النحو العربي: وجهة نظر سيلفستر دو ساسي، مجلة "موارد" ع 22، 2017، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة.
- **درويش، أحمد،** الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1997.
- **الطهطاوي، رفاعة رافع،** تخليص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي، القاهرة 2012.
- **العقيقي، نجيب،** المستشرقون، ج 1، دار المعارف بمصر، 1964.
- **العياشي، عبد الله،** مدرسة الاستشراق الفرنسية وجهودها في دراسة وحفظ المخطوط العربي، العياشي، عبد الله.

- **المقداد، محمود،** تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990.
- **كاترينا مومزن،** جوته والعالم العربي، ترجمة عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، ع 194، الكويت، 1990-1993.
- **كاظم، نادر،** المقامات والتلقي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.
- **اليازجي، ناصيف،** رسالة الشيخ ناصيف اليازجي الى البارون سلوستري دساسي المرحوم، طبعت في "ليبسيك" مع ترجمتها إلى اللاتينية، 1848 (د ت).

ب- الأجنبية

- Belvilancqua Alexander, The republic of Arabic letters , Harvard university press 2018
- Bibliothèque de M le Baron Silvestre De Sacy, imprime par autorisation de M le garde des sceaux , MDCCC XLII ; Paris
- Chabot Jean-Baptiste. Silvestre de Sacy et les études araméennes. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 82e année, N. 1, 1938
- Chochoy Matthieu; Espagne M., Lafi N. et Rabault-Feuerhahn P. (dir.), Silvestre de Sacy. Le projet européen d'une science orientaliste; UMR 8167; http://www.ifao.egnet.net
- Décobert Christian. L'orientalisme, des Lumières à la Révolution, selon Silvestre de Sacy. In: Revue du monde musulman et de la Méditerranée, n°52-53, 1989. Les Arabes, les Turcs et la Révolution française. pp. 49-62; doi : https://doi.org/10.3406/remmm.1989.2287https://www.persee.fr/doc/remmm_0997-1327_1989_num_52_1_2287
- Dehérain Henri. Silvestre de Sacy et l'enseignement de l'arabe à Marseille. In: Journal des savants, Septembre-octobre 1937. pp. 215-221; doi : https://doi.org/10.3406/jds.1937.2952 https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1937_num_5_1_2952
- Dehérain Henri; Le rayonnement de Silvestre de Sacy (premier article). In: Journal des savants, Janvier-février 1937. pp. 17-32; doi: https://doi.org/10.3406/jds.1937.6204 https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1937_num_1_1_6204
- Dehérain Henri; Le rayonnement de Silvestre de Sacy (deuxième et dernier article). In: Journal des savants, Janvier-février 1937. pp. 17-32; doi: https://doi.org/10.3406/jds.1937.6204 https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1937_num_1_1_6204
- Dehérain Henri, « Asselin de Cherville, drogman du consulat de France en Égypte et orientaliste. (premier article) », *Journal des savants*, avril 1916, p. 176-187 (DOI 10.3406/jds.1916.4547)
- Dehérain Henri. Correspondance de Silvestre de Sacy et du conseil de J. B. Louis-Jacques Rousseau. In: Journal des savants. 12e année, Août 1914. pp. 367-371; doi : https://doi.org/10.3406/jds.1914.4277 https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1914_num_12_8_4277
- Dehérain Henri. Un maitre de Silvestre de Sacy l'orientaliste Étienne le Grand. In: Journal des savants, Janvier-février 1935. pp. 17-31; doi : https://doi.org/10.3406/jds.1935.6143 https://www.persee.fr/doc/jds_0021-8103_1935_num_1_1_6143
- Déroche François. La paléographie des écritures livresques dans le domaine arabe. In: Gazette du livre médiéval, n°28. Printemps 1996. pp. 1-8; doi : https://doi.org/10.3406/galim.1996.1328 https://www.persee.fr/doc/galim_0753-5015_1996_num_28_1_1328

- Dussaud René. L'activité académique de Silvestre de Sacy. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 82e année, N. 1, 1938. pp. 100-107; doi : https://doi.org/10.3406/crai.1938.76991 https://www.persee.fr/doc/crai_0065-0536_1938_num_82_1_76991
- Espagne Michel, Nora Lafi, and Pascale Rabault-Feuerhahn, eds., *Silvestre de Sacy: Le projet d'une science orientaliste*. Paris: Éditions du Cerf/Patrimoine, 2016.
- Karttunen, Klaus, Expansion of Oriental Studies in the Early 19th Century Published in Melammu Symposia 4: A. Panaino and A. Piras (eds.), Schools of Oriental Studies and the Development of Modern Historiography. Proceedings of the Fourth Annual Symposium of the Assyrian and Babylonian Intellectual Heritage Project. Held in Ravenna, Italy, October 13-17, 2001 (Milan: Università di Bologna & IsIao 2004), pp. 161-7. Publisher: http://www.mimesisedisioni,it/
- Marçais William. Silvestre de Sacy arabisant. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, 82e année, N. 1, 1938. pp. 79-86; doi : https://doi.org/10.3406/crai.1938.76984 https://www.persee.fr/doc/crai_0065-0536_1938_num_82_1_76984
- Messaoudi Alain , Les arabisants de la France coloniale 1780- 1930; ENS editions ; Lyon 2015,
- Petit-Dutaillis Charles. La vie de Silvestre de Sacy. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et BellesLettres, 82e année, N. 1, 1938. pp. 64-73; doi : https://doi.org/10.3406/crai.1938.76982 https://www.persee.fr/doc/crai_0065-0536_1938_num_82_1_76982 (juin 2020)
- Pouillon François (ed) , Dictionnaire des orientalistes de langue française ; Paris ; IISMM karthala ; 2008 ; article SILVESTRE DE SACY Antoine Isaac ; Sylvette Larzul (version electronique : http://: dictinnairedesorientalistes .ehess.fr
- Taillefer, A ; « Notice historique et biographique sur J.J. Marcel (1776-1854) », dans *Revue de l'Orient, de l'Algérie et des colonies. Bulletin des actes de la Société orientale, algérienne et coloniale de la France*, t. XVI, octobre 1854
- Troupeau Gérard. Les arabisants européens et le système grammatical arabe. In: Histoire Épistémologie Langage, tome 2, fascicule 1, 1980. Éléments d'Histoire de la tradition linguistique arabe. pp. 3-7; doi : https://doi.org/10.3406/hel.1980.1048 https://www.persee.fr/doc/hel_0750-8069_1980_num_2_1_1048
- Said, Edward, L`orientalisme, trad Catherine Malamoud, Ed Seuil, 1997
- Salomon George ; "Bibliothèque des arabisants français, T 1 Silvestre De Sacy (1758-1838), publication de l'institut français de l'archéologie orientale; publié sous la direction de Emile Chassinat, le Caire 1905.